

إضاءات قرآنية

خمسون إضاءة من كتاب الله عز وجل

- الجزء الأول -

جمـع وإعـداد

مسلّم عبدالعزيز الزّامل

كلمة شكر

أتقدّم بوافر الشكر، وعظيم الإمتنان للمشايخ الأفاضل الذين ساهموا معي في مراجعة مادة الكتاب، وهم السادة الأكارم:

- **الدكتور / رياض منصور الخليفي.**
- **الدكتور / علي الجعفري العنزي.**
- **الدكتور / أحمد السيد.**
- **الشيخ / مصطفى عرفة.**
- **الشيخ / محمد خلف.**
- **المصحح اللغوي الأستاذ / محمد ديب عبدالرزاق.**
- **مبرة المتميزين لخدمة القرآن الكريم والعلوم الشرعية برعايتها للكتاب.**

لهم مني جزيل الشكر، ومن الله عظيم الأجر بإذن الله.



إهداء إلى

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد المرسلين النبي المصطفى والحبيب المجتبى محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليمـاً كثيراً. وبعد،،

قد يبدو لقارئ القرآن الكريم - للوهلة الأولى - أن ثمة تعارضًا أو تناقضـًا أو تضاداً بين بعض آيات كتاب الله العزيز وعدم توافق بينها، وربما تحولت التساؤلات في ذهن القارئ لشبهات وزادت حيرته لأنه لم يسأل أهل الذكر، ولم يرجع لكتب التفسير وكان زاده في العلم يسيراً، فيشكل عليه الأمر...

وكشفًا للحقائق، ومنعـًا للبس وضع العلماء علمـًا خاصـًا، أدرجوه ضمن علوم القرآن، أسموه علم (مشكل القرآن) وهو على غرار علم (مشكل الحديث) وذلك لإزالة ما يوهم التعارض والاختلاف بين الآيات.

ومن أجمع ما كتب في هذا الموضوع كتاب: (دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

وقد بين أهل العلم استحالة الإختلاف والتعارض بين الآيات كما قال رب العالمين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء ﴿٨٢﴾.

فالتعارض يعني أن تتقابل آيتان تمنع دلالة إحداهما دلالة الأخرى، كأن تكون الأولى مثبته لشيء والثانية نافية فيه.

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الأعراف ﴿٢٨﴾.

وفي المقابل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء ﴿١٦﴾.

ففي الآية الأولى نفي أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق. وحاشا لله أن يأمر بذلك والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعا بالفحشاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل ﴿٩٠﴾.

والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته قلوه تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يـس ﴿٨٢﴾.

القرآن كتاب مُتَشَابِه يشبه بعضه بعضـًا، ويصدّق بعضه بعضا، ويدلّ بعضه على بعض، لا اختلاف فيه ولا تضادّ، الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف وهو (مَثَانِيَ) ثَنَى الله فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج والفرائض والقضاء والحدود، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الزمر ﴿٢٣﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾ آل عمران ﴿٧﴾.

فمنه آيات تشتبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكمات، أما الذين في قلوبهم زيغ ومرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله وتحريفه إلى مقاصدهم الفاسدة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ آل عمران ﴿٧﴾.

أما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، وإيهامهم بأن القرآن يشهد على صحة عقائدهم المنحرفة.

إن معجزة القرآن الكريم الخالدة تتجلى في قلة مبانيه وغزارة معانيه وكنوزه التي لا تفنى، وكل كتاب يبدأ صاحبه بكلمة يلتمس بها العذر من القارئ إن وقع فيه خطأ أو زلل، إلاكتاب الله الذي بدأ بكلمة تقطع الشك باليقين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة ﴿٢﴾، لا ريب فيه ولا شك، نفي قاطع أن يقع فيه أي نقص أو يعتريه تناقض أو يشوبه تعارض أو اختلاف: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء ﴿٨٢﴾، كل أخباره وأحكامه وألفاظه جاءت في انتقاء بديع ونظم رصين، ودقة متناهية.

كِتَابٌ عظيم، أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ وأتقنت كلماته وصدقت أخباره، وبانت أوامره ونواهيه، وتجلت فصاحته وازدانت معانيه ثُمَّ فُصِّلَتْ وأُحْكمتْ آياته من لدن حكيم خبير كما قال تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود ﴿١﴾، ولا يصل إلى جواهره النفيسة إلا مَن تمعن في آياته وتدبّر معانيها فازداد شغفاً وحباً ورغبة بالاستزادة من هذا المنهل الصافي فينعم بذخائر قيمة من الحكم والأحكام والتوجيهات الربانية، حتى يتملّك القرآن مشاعره وأحاسيسه.

وهي نعمة وهبة ربانية لا ينال أطايب ثمارها إلا ذوي البصائر الجلية والأيادي النقية، والنفوس الزكية.

بين يديك عزيزي القارئ إضاءات وإشراقات استلهمتها بتوفيق من الله بعد رحلة تدبر وتأمل في آيات من القرآن الكريم قد يبدو في ظاهرها التكرار

أو التعارض، وهي حتماً ليست كذلك، بل لا يوجد في القرآن ترادف في الكلمات، فكل كلمة تحوي معنى وتحمل مغزى.

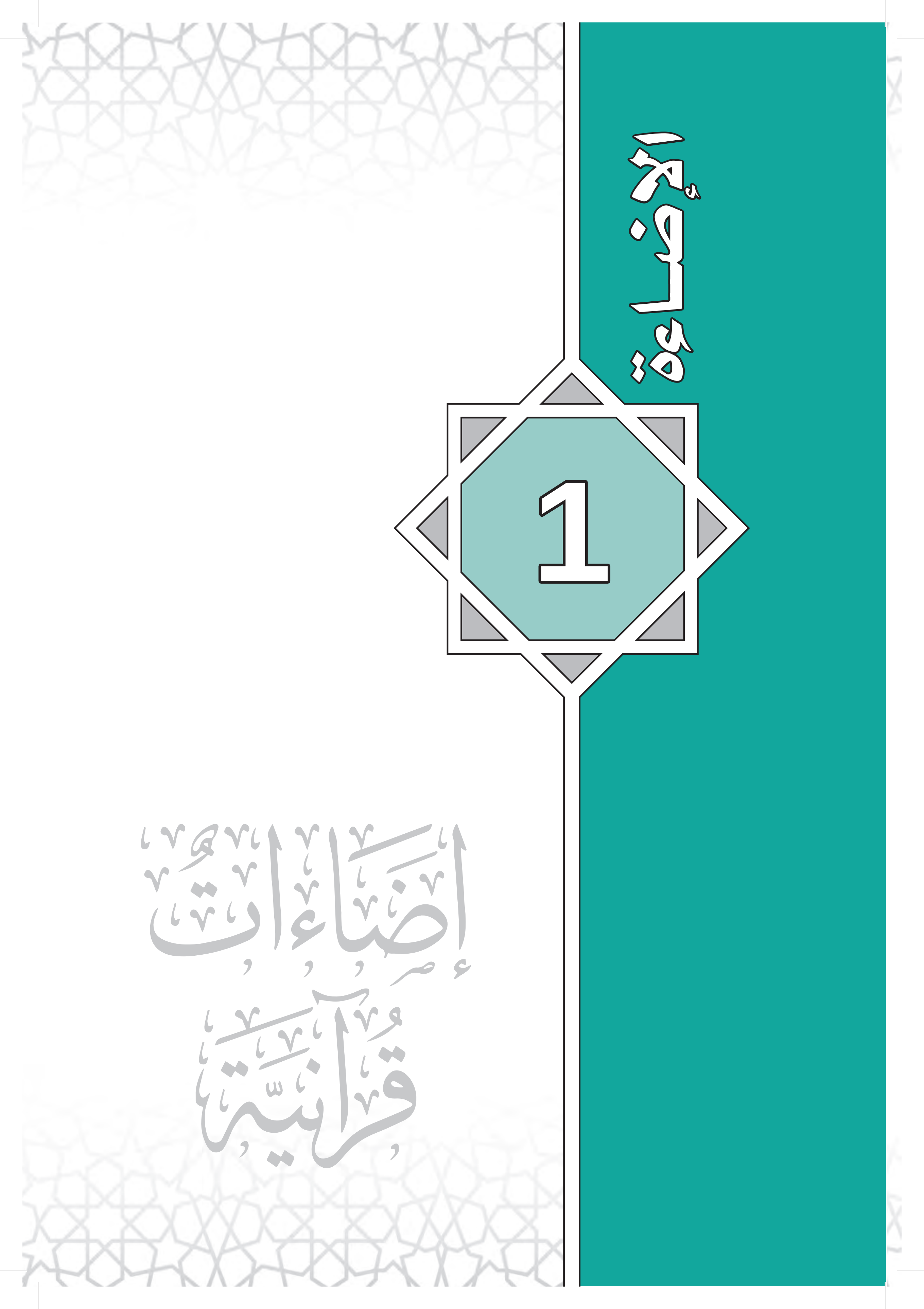
ولقد وقفت على جملة من آراء العلماء السديدة المنثورة في كتب التفسير تزيل اللبس الذي يقع به البعض، وتصحح الفهم وتفسّر علاقة الآيات ببعضها أحببت أن أجمعها بين دفتي هذا الكتاب.

واعتمدت بعد الاستعانة بالله والتوكل عليه لفهم النصوص ومراميها على على دراسة ما حَفِلَتَ به كتب التفسير من درر وفوائد قيمة مثل القرطبي والطبري والبغوي وابن كثير والسعدي وغيرهم للوقوف على كافة الآراء الواردة في تفسير كل آية موضع البحث، إضافة إلى نقل بعض آراء العلماء والمشايخ المعاصرين المنشورة في وسائل التواصل الإجتماعي وعبر مواقعهم الإلكترونية في شبكة المعلومات (الإنترنت)، ونسبتها لتلك المواقع تعميماً للفائدة، وبذلت وسعي بأن تكون الأحاديث الواردة في الكتاب مخرَجة وصحيحة، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، سائلاً المولى عزّ وجل التوفيق والسداد.

كتبهُ..

مسلّم عبدالعزيز الزامل

المحتويات


إضاءة
1
إضاءات قرآنية

الرد على من يدعي أن هناك تعارضًا أو تناقضًا بين الآيات

يحسّن بنا في مستهل الحديث عن هذه الإضاءات المباركة الإشارة لنماذج من الشبهات التي آثارها بعض المتربصين من أعداء الدين، وعرضها بطريقة مشوهة لا تخلوا من التدليس والتشكيك والتحريف لإثبات التناقض أو التعارض أو التضارب بين هذه الآيات حتى قال أحدهم وهو نصراني:

توجد في سورة النساء آية تقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا...﴾ النساء ﴿٨٢﴾.

لكننا نجد فيه تناقضًا، واختلافًا كثيراً وضرب على ذلك أمثلة ذلك...)؟!

• التناقض الأول:

يقولون أن هناك آية تقول إن اليوم عند الله كألف سنة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ السجدة ﴿٥﴾، وفي آية أخرى تقول إن اليوم عند الله كخمسين ألف سنة..!

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج ﴿٤﴾، فهل اليوم عند الله يعدل ألف سنة، أم خمسين ألف سنة؟

• الرد على الشبهة:

الآيات الواردة في بيان قدر اليوم عند الله عز وجل نوعان:

النوع الأول: آيات تتحدث عن يوم القيامة وهوله، وما يكون فيه من أحداث عظام، وآيات باهرة، وأنَّ مِن أهواله طول ذلك اليوم بما يعادل خمسين ألف سنة من سني الدنيا، كما جاءت في سورة المعارج، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا يوم القيامة، جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة انتهى. رواه الطبري في جامع البيان (٢٣/ ٦٠٢).

النوع الثاني: آيات لا تتحدّث عن طول يوم القيامة، وإنما تتحدّث عن طول الأيام التي عند الله عزّ وجل، وقدرها بالنسبة لأيام الدنيا التي نعدها، وهي الأيام التي يحدث الله فيها الخلق والتدبير، فبيَّن سبحانه وتعالى أن اليوم عنده يساوي ألف سنة من أيامنا هذه، وقد جاء ذلك في سورة الحج، في الآية السابعة والأربعين، حيث يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج ﴿٤٧﴾.

وجاء أيضاً في سورة السجدة، في الآية الخامسة، حيث يقول عزّ وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ السجدة ﴿٤﴾-﴿٦﴾.

ويظهر واضحاً من سياق الآيتين هنا أن الحديث فيها عن أيام الله التي يكون فيها خلقه وتدبيره، فوصفها عزّ وجل بأن مقدارها يبلغ ألف سنة من أيام الدنيا.

وبهذا يتبيَّن أن النوعين السابقين من الآيات إنما تتحدث عن أيام مختلفة، وليست أياماً واحدة، فاليوم في آية المعارج هو يوم القيامة، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما اليوم في آيتي الحج والسجدة فهو اليوم عند الله الذي يدبر فيه الأمور، ومقداره ألف سنة.

قال ابن حزم رحمه الله: يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج ﴿٤﴾، وبهذا أيضا جاءت الأخبار الثابتة عن رسول الله ﷺ.

وأما الأيام التي قال الله تعالى فيها أن اليوم منها ألف سنة فهي أُخر.

قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ السجدة ﴿٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج ﴿٤٧﴾.

فهي أيام أخر بنص القرآن، ولا يحل إحالة نص عن ظاهره بغير نص آخر أو إجماع بيقين انتهى باختصار. الفصل في الملل (٣/ ٧٧).

وقد سُئِل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن سبيل الجمع بين الآيات السابقة فأجاب: إن الآيتين اللتين أوردهما السائل في سؤاله - وهما قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ السجدة ﴿٥﴾، وقوله في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج ﴿٤﴾.

الجمع بينهما: أن آية السجدة في الدنيا، فإنه سبحانه وتعالى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم، كان مقدار هذا اليوم - الذي يعرج إليه الأمر - مقداره ألف سنة مما نعد، لكنه يكون في يوم واحد، ولو كان بحسب ما نعد من السنين لكان عن ألف سنة، وقد قال بعض أهل العلم إن هذا يشير إلى ما جاء به الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام (إن بين السماء الدنيا والأرض خمسمائة سنة) فإذا نزل من السماء ثم عرج من الأرض فهذا ألف سنة.

وأما الآية التي في سورة المعارج، فإن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿١﴾ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ المعارج ﴿١﴾-﴿٣﴾. وقوله: (في يوم) ليس متعلقاً بقوله تعالى: ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، لكنه متعلق بما قبل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿١﴾ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ المعارج ﴿١﴾-﴿٣﴾ هي جملة معترضة.

وبهذا تكون آية المعارج في يوم القيامة، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة في قصة مانع الزكاة أنه يحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

فتبيّن بهذا أنه ليس بين الآيتين شيء من التعارض لاختلاف محلهما والله أعلم - انتهى باختصار -.

فتاوى نور على الدرب (علوم القرآن والتفسير/ سورة السجدة).

وهذا هو اختيار العلامة محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٨/ ٣٩٦).

والله أعلم.

• التناقض الثاني:

في موطن ينفي القرآن الشفاعة للبشر، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعا لهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾ الزمر ﴿٣٩﴾، وقال أيضـًا: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يونس ﴿١٠﴾، وقال سبحانه:﴿مَا لكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ السجدة ﴿٤﴾، وفي موطن آخر يثبت الشفاعة، كقوله تعالى:﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ البقرة ﴿٢٥٥﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ ﴿٢٣﴾

• الرد على الشبهة:

أما الشفاعة المنفية في قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يونس ﴿٣﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ السجدة ﴿٤﴾، فهي الشفاعة المعروفة عند الناس، وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداءً - دون إذن - فتقبل شفاعته، فأراد سبحانه نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم

عند بعض، قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾ النجم ﴿٢٦﴾.

أما الشفاعة المثبتّة فهي التي يأذن الله تعالى بها، ولا يكون العبد مستقلاً بالشفاعة بل يكون مطيعاً لله تابعاً له، ويكون الأمر كله للآمر المسؤول، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ الزمر﴿٤٤﴾. وذلك في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة ﴿٢٥٥﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ ﴿٢٣﴾، وأمثال ذلك، فتبين أنه لا تناقض بينهما.

• التناقض الثالث:

مرة يذكر أن أهل الجنة من المسلمين عددهم قليلٌ كقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِن الأَوَّلين ﴿١٣﴾ وقليلٌ مِن الآخِرين﴾ الواقعة ﴿١٣﴾-﴿١٤﴾، ومرة يذكر أنهم كثير كما قال: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ الواقعة ﴿٣٩﴾-﴿٤٠﴾.

• الرد على الشبهة:

أما الآيتان **(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)** و**(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)** فهذا الاختلاف سببه اختلاف مقام الكلام لأن الله تعالى قَسَّم الناس في سورة الواقعة يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام: **(السابقون - أصحاب الميمنة - أصحاب المشأمة)** ثم بيّن مصيرَ كل قسم، فالسابقون السابقون: لهم منزلة المقرّبون في جنات النعيم، ثم بيّن أن أصحاب هذه المنزلة فريقان: كثيرون من السابقين الأولين وقليلون من الأجيال المتأخرين.

أما أصحاب الميمنة: فمنزلتهم أدنى من السابقين لذلك كانت درجاتهم أدنى ويشاركهم في هذه المنزلة كثير من الأجيال اللاحقة لأن فرصة العمل بما جعلهم أصحاب اليمين متاحة في كل زمن، وعلى هذا فلا تناقض.

• التناقض الرابع:

مرة يعتبر اليهود والنصارى والصابئين من الناجين ودينهم مقبول قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة ٦٩.

ومرة يرفض دينهم ولا يقبله منهم! فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ آل عمران ٨٥.

• الرد على الشبهة:

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة ٦٩ فمعناه أن من آمن من اليهود والنصارى والصابئين بـ محمد ﷺ وبما جاء به واليوم الآخر ويعمل صالحاً فلم يبدل ولم يغير حتى يتوفى على ذلك فله ثواب عمله وأجره عند الله، والآية أيضاً تشمل كل من آمن بنبيه في زمانه ولم يدرك غيره، أو من آمن بنبيه وأدرك غيره فآمن به.

وأما آية آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران ٨٥ فالإسلام هو الدين الحق الذي بعث الله به جميع الأنبياء، والمسلم الحق هو من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان، من أي ملة كان حتى بعث محمد ﷺ، فمن لم يؤمن به فهو من الكافرين.

• التناقض الخامس:

مرة لا يُقسِم بالبلد، قال تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ البلد ١.

ومرة يُقسِم بالبلد، قال جلّ وعلا: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ التين ٣.

• الرد على الشبهة:

أما قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فـ (لا) نفي صحيح وهي رد لكلام من أنكر البعث ورد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة المغرور بالدنيا، أي ليس الأمر كما في قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لا يناقض قسمه به في قوله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ إذ أن لا في الآية الأولى نافية، وهي للتوكيد، فتأتي في القسم كما في قوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أقسم بربك، وفي قراءة الحسن والأعمش وابن كثير: لأقسم بهذا البلد، من غير ألف بعد اللام إثباتاً للقسم فلا تعارض بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ التين ﴿٣﴾.

• التناقض السادس:

وصف القرآن بأنه مبين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ النحل ﴿١٠٣﴾.

ومرة يقول إن آياته فيها محكم ومتشابه كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾ آل عمران ﴿٧﴾.

• الرد على الشبهة:

لا تناقض بين كون القرآن الكريم مبيناً وكونه متشابهاً...

فإن المعنى متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعنى، كما قال جل ثناؤه ﴿وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ البقرة ﴿٢٥﴾.

يعني في المنظر مختلفاً في المطعم، وكما أخبر عن بني إسرائيل قولهم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ البقرة ﴿٧٠﴾ يعنون بذلك تشابه علينا في الصفة، وإن اختلفت أنواعه، فالقرآن العظيم يشبه بعضه بعضا في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا، وكل هذا لا يناقض كونه عربياً مبينا إلا عند أعاجم اللسان، الجهال بلغة التنزيل المعجز الذي أعجز الإنس والجن، والله أعلم.


إضاءة
2
إضاءات قرآنية

ما الفائدة من الإنذار إذن؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة ﴿٦﴾.

إذا كان إنذارهم وعدم إنذارهم سواء، والنتيجة واحدة وهي أنهم لن يؤمنوا، إذن ما الفائدة من الإنذار؟ وما الداعي للنصح والإرشاد لقوم نعلم أنهم لن يستجيبوا؟ فالنتيجة معلومة سلفاً وهي عدم إيمانهم في كل الأحوال؟!

المتأمل في مفردات الآية يلحظ أن الله سبحانه قال (**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**) ولم يقل (**سَوَاءٌ عليك**).. والفرق بينهما كبير! وهو ما يفسر المغزى العميق من الآية، فليس المعني بالخطاب هو النبي محمد ﷺ بل قومه.

لذا قال: (**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**) فقد سبق في علم الله أن هؤلاء المعاندين الجاحدين المارقين الذين يحادون الله ورسوله لن يؤمنوا، ومصداق هذا قول قوم هود لنبيهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الشعراء ﴿١٣٦﴾، بعدما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم وبيّن لهم الحق ووضحّه أصرّوا على كفرهم وبغيهم وطغيانهم فكان ردهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هود ﴿٥٣﴾.

أي: لا نرجع عما نحن فيه، وقد أكد سبحانه هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يونس ﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ...﴾ البقرة ﴿١٤٥﴾.

ولكن هذا الأمر في علم الغيب، ونحن لا نعلم ما تضمر النفوس ولا يعلمهم إلا الله كما قال سبحانه لرسوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾ التوبة ﴿١٠١﴾.

فهو سبحانه المطلع على السرائر ويعلم من البشر من يستجيب ومن لا يستجيب ومن يعرض ومن يقبل كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ عبس ﴿٣﴾

وأخبر نوح عليه السلام أن قومه لن يؤمنوا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هود ﴿٣٦﴾.

فالهداية هدية من المولى تعطى لمن يستحقها، ويسعى لها لقوله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت ﴿٦٩﴾.

أما المعاند والجاحد والمكابر فقد صرف نفسه عن الهداية فصرفها الله عنه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ﴿١٤٦﴾، ولا يستحق أمثال هؤلاء الحسرة عليهم: ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فاطر ﴿٨﴾، فمهمة الداعية بذل السبب: ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الشورى ﴿٥٢﴾.

أما النتيجة فليست بيده: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص ﴿٥٦﴾.

فالداعية مطالب بتبليغ الرسالة ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ الشورى ﴿٤٨﴾. وإقامة الحجة، فإذا استنفد الوسع والطاقة

انتهى دوره، ولا يملك اقناع الناس بالقوة، أو التحكم بآرائهم وقراراتهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يونس ﴿٩٩﴾.

وكما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ الغاشية ﴿٢١﴾.

ولما سأل أقوامٌ رسلهم عن سبب استمرارهم في الوعظ والإرشاد رغم اعراض المخالفين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف ﴿١٦٤﴾.

كان الجواب: معذرة إلى ربكم، نقيم الحجة ونبرئ الذمة ونؤدي الأمانة ولعلهم يتقون... لا ندري، قد تتأخر الهداية، وقد تحجب!

فقد نزلت هذه الآية بشأن أصحاب القرية الذين اعتدوا في السبت وارتكبوا ما نهاهم الله عنه من الصيد، فلما نصحهم أصحابهم قال آخرون: لم تعظونهم؟

قالوا: عظتنا إياهم إنما هي معذرة إلى ربنا نؤدي فرضه علينا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعلهم يتقون ويخافون ويرتدعون ويتوبون.



إضاءة
3
إضاءات قرآنية

لا تقربوها- لا تعتدوها... ما الفرق؟

ختم الله عز وجل آية من سورة البقرة بكلمة (فلا تقربوها)

﴿... تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ البقرة ١٨٧.

وختم آية أخرى مشابهة بكلمة (فلا تعتدوها).

﴿... تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ البقرة ٢٢٩.

فما الفرق بين الختامين؟ (فلا تقربوها فلا تعتدوها)..؟!

الآية الأولى: وردت في سياق ذكر (المحرمات) أثناء الصيام والاعتكاف، مثل الأكل والشرب والوطء، فناسب ذلك قوله عز وجل ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لأنها جميعًا مُحَرَّمات.

الآية الثانية: فقد وردت في سياق ذكر (المباحات) مثل: النكاح، وأحكام الطلاق والعدة والإيلاء والرجعة، وليست جميعها من المحرمات؛ لذلك كان لفظ ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أليق بالمعنى المراد، أي: لا تتجاوزوا هذه الأحكام التي بيَّنها الله لكم فيما هو حلال وما هو حرام؛ ولذلك ختمت الآية بقوله عزّ وجل:﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة ٢٢٩، كالزواج من أربع نساء فلا يتعدى الرجل ذلك، ويضم لهن زوجة خامسة، ومن ثم: فلفظ لا تقربوها خاص بالمحرمات.

ولفظ لا تعتدوها خاص بالمباحات، وتعد كلمة **(لا تقربوا)** هي من أشد صيغ التحريم كما جاءت هذه الكلمة في الزنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الأسراء ٣٢

وكذا قال في مال اليتم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ..﴾ الأنعام ﴿١٥٢﴾

فإذا كان الاقتراب من الشيء محرماَ، فمن باب أولى تعاطيه محرماً، وفي هذا رد على من يتساءل: لماذا لم ترد كلمة الحرام في الخمر؟

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ﴿٩٠﴾، ولو فهم هؤلاء معنى كلمة (الاجتناب) لكفاهم ذلك جواباً، فهو سبحانه بعد أن ذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وبين أنهم رجس من عمل الشيطان، عقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والأمر بالاجتناب لفظ استخدم في الزجر عن الأوثان وعبادتها، فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الحج ﴿٣٠﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل ﴿٣٦﴾

وقال عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا...﴾ الزمر﴿١٧﴾.

كما استخدم لفظ الاجتناب في ترك كبائر الذنوب والآثام.

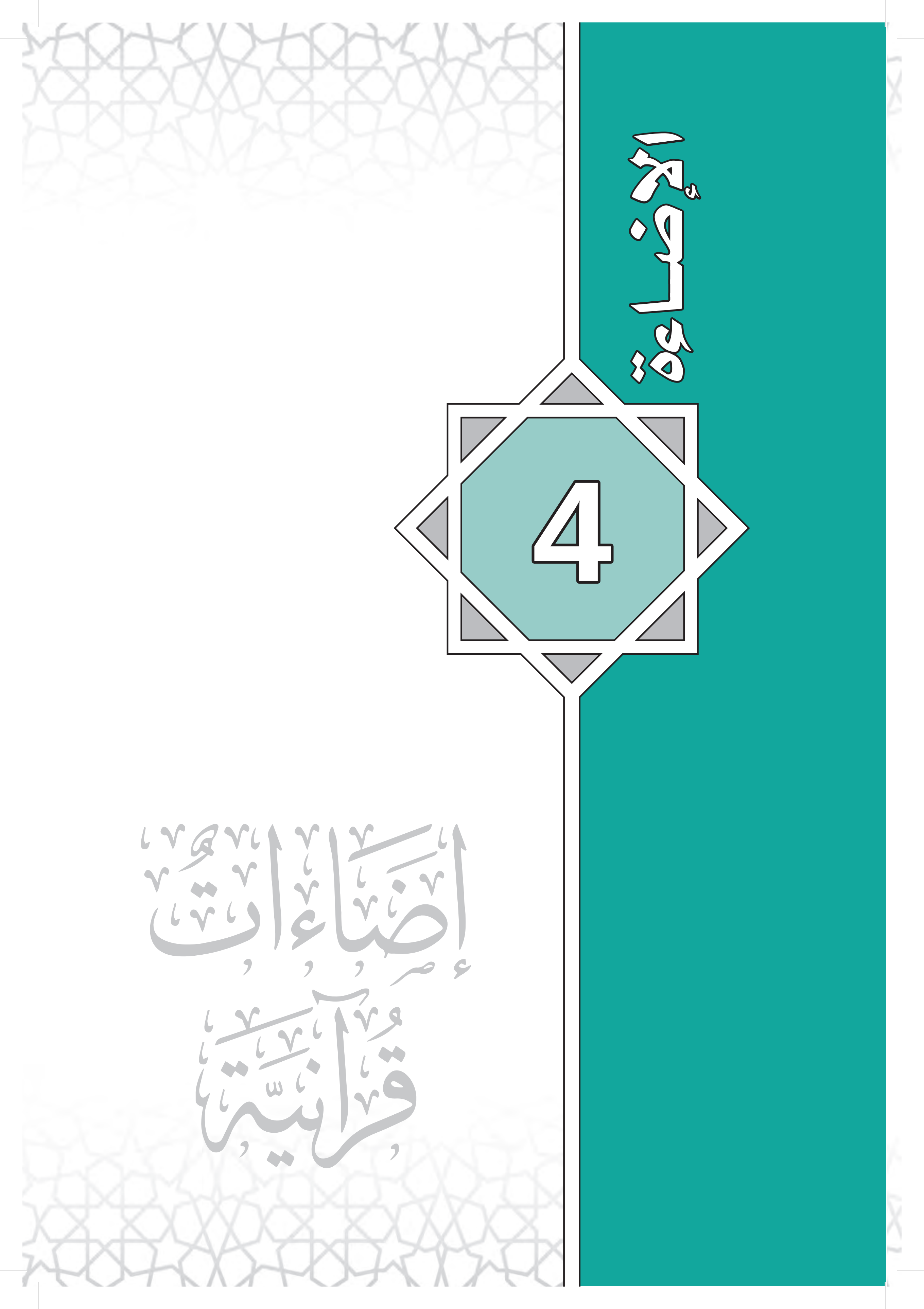
قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ النساء ﴿٣١﴾
وكذا قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلا اللَّمَمَ﴾ النجم ﴿٣٢﴾

فاجتناب الشيء يعنى عدم الاقتراب منه، وإلا فإن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيها!

حتى في العصر الحديث تكتب حول المناطق العسكرية عبارة:

(منطقة محظورة ممنوع الإقتراب)، ومن يقترب يعرّض نفسه للخطر.





إضاءة
4
إضاءات قرآنية

هل نتلقّى الكلام باللسان... أم بالآذان؟

لما ذكر الله عزّ وجل أحكام قذف المحصنات في مطلع سورة (النور) وأعقبها بنزول آيات البراءة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من (الإفك) الذي أشاعه المنافقون عنها زوراً وبهتاناً، أشار لسرعة انتقال الإشاعة دون تثبت بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَاللهِ عَظِيمٌ﴾ النور ١٥.

واللافت للنظر استبدال القرآن جارحة الأذن بجارحة اللسان في تلقي الكلام وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ فهل يتلقى الإنسان الكلام باللسان أم بالأذان؟!

إنه وصف بليغ لسرعة انتشار الفرية وتداول الإشاعة بين الناس كالكرة تتقاذفها الألسن دون تمحيص ولا ترو ولا تثبت، حتى أنها لا تأخذ وقتها لتصل إلى العقل، كما يقول سيد قطب: في كتابه «**في ظلال القرآن**»، (وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرّج، لسان يتلقى عن لسان بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إمعان نظر، كأن القول لا يمر على الآذان ولا تتملأه الرؤوس ولا تتدبره القلوب)!

كم دمرت هذه الفرية من علاقات وأرحام، وهدمت من وشائج[1] وقرابات حتى همّ أبوبكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حادثة الإفك أن يقطع النفقة عن قريبه مسطح بن أثاثة الذي تكلم في عرض السيدة عائشة رضي الله عنها، ثم عدل الصدّيق عن ذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا

(١) وشائج جمع وشيجة وهي الصلة (معجم المعاني الجامع).

أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور ﴿٢٢﴾.

كل هذا بسبب التساهل في نقل الروايات التي تمس الذمم والأعراض دون تثبت فتزرع الشك والريبة بين الناس، لذا وضع الإسلام شروطا للقذف تكاد تكون تعجيزية حفظًا للأعراض، وصونا للمجتمع من العبث والفوضى وردعًا لضعاف النفوس.




إضاءة
5
إضاءات قرآنية

ما الفرق بين كلمة (الرّحمن) و(الرّحيم)؟

من أسمـاء الله الحسنى: الرحمن والرحيم.

وهما يدلان على اتصاف الله تعالى بالرحمة. ولكن ما الفرق بينهما؟

الاسمان يأتيان مقترنان أحيانا كما في التسمية (**بسم الله الرحمن الرحيم**). وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فصلت ﴿٢﴾.

ومستقلان عن بعضهما في آيات أخرى، كما في قوله تعالى:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يس ﴿٥٨﴾.

وفي مكان آخر ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الحجر ﴿٤٩﴾.

الرحمن كلمة تدل على سعة رحمة الله، والرحيم يدل على إيصالها لخلقه...

فالرحمن: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم: ذو الرحمة الواصلة.

قال الشيخ محمد بن صالح ابن عثيمين رحمه الله:

(**الرّحمن**): هو ذو الرحمة الواسعة ؛ لأن فَعْلان في اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء، كما يقال: رجل غضبان، إذا امتلأ غضبًا.

(**الرّحيم**): اسم يدل على الفعل؛ لأنه فعيل بمعنى فاعل، فهو دال على الفعل، فيجتمع من (**الرّحمن الرّحيم**) أن رحمة الله واسعة، وتؤخذ من (**الرّحمن**)، أنها واصلة إلى الخلق، وتؤخذ من (**الرّحيم**)، وهذا ما رمى إليه بعضهم بقوله: (**الرّحمن**) رحمة عامة، و(**الرّحيم**) رحمة خاصة بالمؤمنين وجاء في تفسير السعدي في قوله تعالى: ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ﴿١٥٦﴾.

قال: من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة اللّه، وغمره فضله وإحسان[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: الرحمن اسم عام يشمل جميع أنواع الرحمة، يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب ﴿٤٣﴾ فخصهم باسمه الرحيم فدل ذلك على أن (**الرّحمن**) أشد مبالغة في الرحمة، لعمومها الدارين ولجميع الخلق.

و(**الرّحيم**) خاص بالمؤمنين، واسمه تعالى: (**الرّحمن**) خاص به، لم يسم به غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الاسراء ﴿١١٠﴾.

(١) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي ص ٢٩٨، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد عام ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.




إضاءة
6
إضاءات قرآنية

لماذا طلب إبليس مهلة إلى يوم يبعثون؟

لما رفض إبليس السجود لآدم أمره ربه جلّ وعلا بالخروج من الجنة فطلب من ربه أن يمهله إلى يوم يبعث الخلق:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الحجر ٣٦. فرد عليه سبحانه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الحجر ٣٧-٣٨.

فما الفرق بين يوم (يبعثون) ويوم (الوقت المعلوم)؟

إبليس أراد أن ينجو من النفخة الأولى التي تنهي الحياة والأحياء، ويموت فيها كل الخلق يوم القيامة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن ٢٦-٢٧. وهو الوقت الذي كتب الله فيه الهلاك والموت والفناء لكل شيء، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

يقول الطبري في تفسيره الآية: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

قال أبو جعفر: سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأل النظرة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق، ولو أعطي ما سأل من النظرة، كان قد أعطي الخلود وبقاء لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٣٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الحجر ٣٦-٣٨.

فالله سبحانه وتعالى لم يسمح بإنظاره إلى يوم البعث وهو ما يريده الشيطان ليبقى حياً عند النفخة الأولى في الصور، فلا يصعق كبقية الخلائق، ولا يموت ويبقى حتى يوم البعث، لكن الله كشف مراده، ورد كيده وبيّن أنه سيموت كغيره وأنه سيبقى إلى يوم الوقت المعلوم، معلوماً عند الله وليس معلوماً عند غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر ٢١، وقوله أيضاً: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات ٤١.


إضاءة
7
إضاءات قرآنية

لماذا كان عقاب الزوج الكاذب في اليمين (اللعن)، وعقاب الزوجة الكاذبة غضب الله؟

تصدّرت أحكام قذف المحصنات مطلع سورة **(النور)** وبينت شروط اتهام إنسان في شرفه، واستثنت القذف بين الزوجين بأحكام خاصة، بدل مطالبة القاذف أن يأتي بأربعة شهداء على واقعة الزنا، أن يحلف خمس مرات على شهادته، ومن حق المرأة أن تدفع عن نفسها هذه التهمة بأن تقسم خمس مرات لتدرأ عنها العذاب والعقاب، وهو ما يسمى بيمين (الملاعنة).

لكن الملاحظ أن عقاب الرجل الذي يطعن بزوجته إن كان كاذباً هو (اللعن)، بينما عقاب المرأة إن كانت كاذبة هو (الغضب) عليها...!

كما قال تعالى في شأن الزوج:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ النور ۝٦ ۝٧

ثم قال سبحانه في شأن الزوجة:

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ النور ۝٩

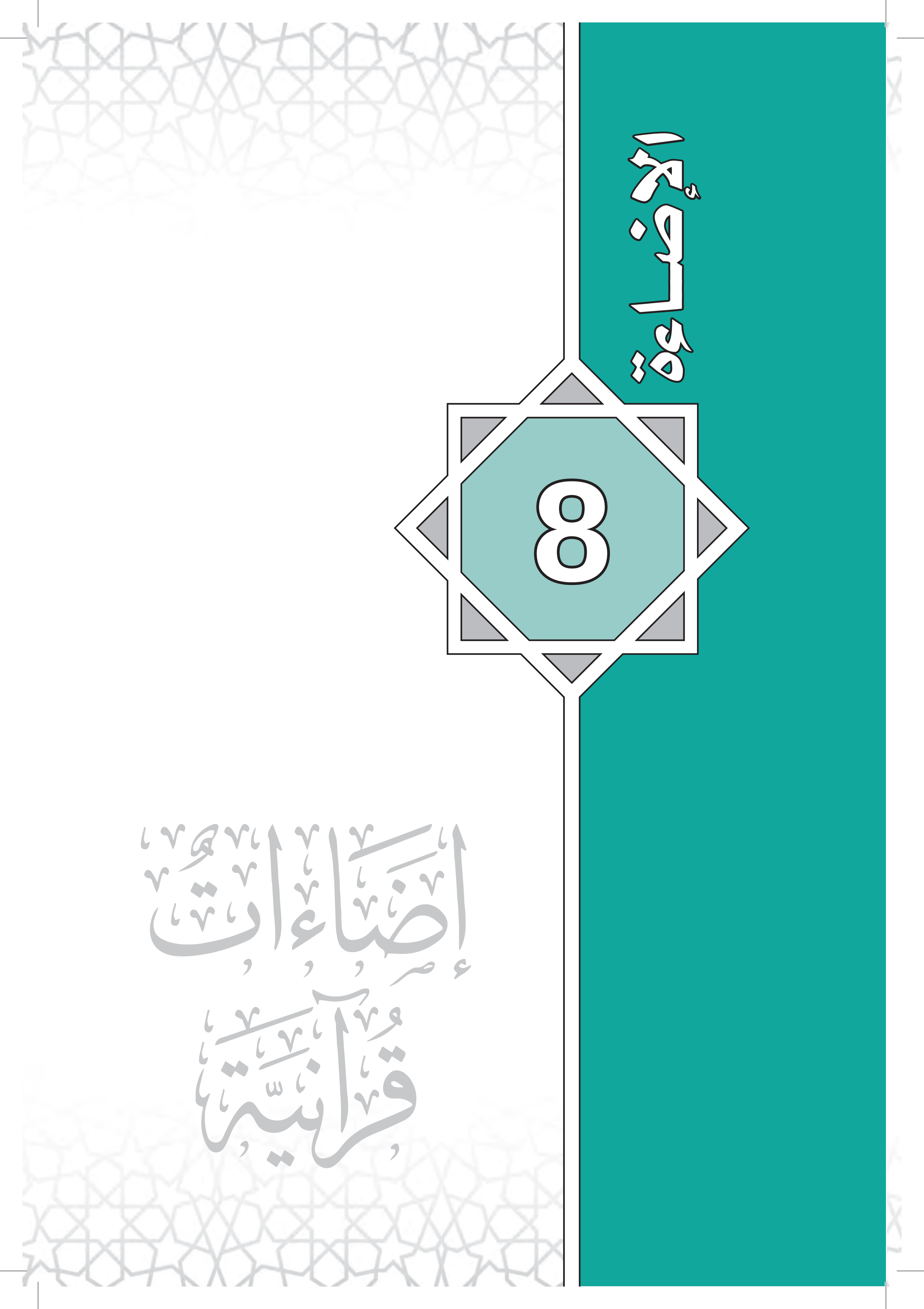
فعقاب الرجل إن كان كاذبا هو اللعن، وعقاب المرأة إن كانت كاذبة هو الغضب عليها.

فما السبب في أن قسم الرجل ينتهي بكلمة (لعنة الله عليه)، بينما قسم المرأة ينتهي بكلمة (أن غضب الله عليها)؟ لِمَ اختلف التعبير بين لعنة وغضب؟

من المعلوم أن اللعن هو الطرد من رحمة الله، فكما أراد الزوج طرد زوجته من رحمته وعنايته ورعايته باتهامها بفاحشة الزنا زوراً وبهتانـًا وهو كاذب واستهان بالقسم، وبالأيمان المغلظة، استحق أن ينال العقاب نفسه بأن يطرد من رحمة الله، فالجزاء من جنس العمل.

أما الزوجة فإن كانت كاذبة فإنها تستحق غضب الرب جل وعلا لأنها كتمت الحقيقة وأنكرتها، كما فعل اليهود الذين عرفوا الحق وكتموه، بل وأنكروه فصاروا من المغضوب عليهم.




إضاءة
8
إضاءات قرآنية

نرزّقكم - نرزّقهم... ما الفرق؟

نهى المولى عزّ وجل المسلم عن الجزع والقلق من فقدان الرزق وعن قتل الأولاد خشية الفقر أو الخوف من وقوع الفقر، إلا أن الملاحظ أن الآية التي جاءت في سورة (**الأنعام**) قدمت الآباء على الأبناء فقال تعالى: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أما في سورة (**الإسراء**) العكس، قدمت الآية الأبناء على الآباء ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾... فما الفرق؟

لـمّ جاء ترتيب الكلمات بهذا الشكل؟!

من يتدبر في صياغة الآيات يكتشف السر في هذا الاختلاف، فكل آية جاءت بصيغة تناسب حالة المخاطب، ففي الآية الأولى قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام ١٥١.

أما في سورة الإسراء، فقال سبحانه: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ الإسراء ٣١.

(**الإملاق**) هو الفقر، وقد جاءت آية سورة الأنعام بنهي الآباء عن قتل أبنائهم من فقرهم الحاصل: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ﴾، أما في سورة الإسراء فجاء النهي عن قتلهم خشية حصول الفقر في الآجل، وختم سبحانه كلتا الآيتين بما يناسب المقام، لذا قال في الأولى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأن الفقر واقع في الحال على الوالد والولد، أما في الثانية فقال ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزق الأبناء والاهتمام بهم لإعلام الآباء بعدم الخوف من الفقر، أي لا تقتلوا أولادكم لفقركم الحاصل فإن الله متكفل برزقكم ورزقهم إذ كانوا في الجاهلية

يئدون بناتهم خشية الفقر الحاصل أو المتوقع فنهاهم سبحانه لأنه تكفل برزق الآباء، والأبناء.

● فائدة مهمة:

تكفّل سبحانه بالرزق للخلق، كل الخلق مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، تكفل بالبشر وبالدواب وبكل المخلوقات، لأنه رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ العنكبوت ﴿٦٠﴾.

لذا: حين دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يرزق أهل الحرم من الثمرات من آمن منهم فقط، قال الله تعالى **(ومن كفر)** أيضا سيشمله الرزق، وهذا من تمام الربوبية لكل الخلق.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة ﴿١٢٦﴾.





إضاءة
9
إضاءات قرآنية

ما الفرق بين (الأبوين) و(الوالدين) في القرآن الكريم؟

إذا رأيت كلمة الأبوين فاعلم أن الآية قصدت الأب والأم مع الميل لجهة الأب، لأن الكلمة مشتقة من الأبوة، أما إذا رأيت كلمة الوالدين فاعلم أن الآية قصدت الأب والأم أيضا مع الميل لجهة الأم لأن الكلمة مشتقة من الولادة، لذا كل آيات المواريث وتحمل المسؤولية والتبعات الجسام تأتي كلمة الأبوين ليناسب ذلك الرجل.

فهو المسؤول عن الإنفاق، وميراثه مصروف، أما ميراث المرأة فمحفوظ!

قال تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ النساء ﴿١١﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يوسف ﴿١٠٠﴾.

أما في الوصية والمغفرة والدعاء والإحسان فتأتي كلمة الوالدين ليتناسب ذلك مع فضل الأم.

كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ العنكبوت ﴿٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الإسراء ﴿٢٣﴾.

وللدكتور فاضل السامرائي تعليق جميل ُنشر في موقعه الإلكتروني يُحسن بنا نقله إتماماً للفائدة.

يقول: ربنا سبحانه وتعالى لم يستعمل البر والإحسان والدعاء في جميع القرآن إلا للوالدين وليس الأبوين، ففي الأموال يستعمل كلمة الأبوين وفي الدعاء الوالدين ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ نوح ﴿٢٨﴾.

استعمل البر والإحسان للفظ الوالدين وليس للفظ الأبوين. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ الكهف ﴿٨٠﴾، ليس في هذا المقام ذكر للبر، لذا قال أبواه!

أما في سورة يوسف فقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾، لأن الأب أحق بالعرش فقُدِّم، وقل مثل ذلك في الفرق بين الأبناء والأولاد فالأبناء جمع ابن بالتذكير كقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾ البقرة ﴿٤٩﴾، أي الذكور أما الأولاد فهي جمع ولد وهي عامة للذكور والإناث.

أبناء جمع ابن وهي للذكور أما أولاد فهي جمع ولد وهي للذكر والأنثى، كما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ النساء ﴿١١﴾، الذكر والأنثى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ البقرة ﴿٢٣٣﴾، فالإرضاع للذكور والإناث، والله أعلم.

فسبحان الله العظيم، دقة في البيان، وفصاحة في القرآن الكريم.




إضاءة
10
إضاءات قرآنية



هل يُحاسب المرء على النية السيئة، وإن لم يفعلها؟!

من رحمة الله بعباده أن لا يحاسبهم على النية السيئة أو الهم بالمعصية إلا إذا عملها لحديث النبي ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: **(إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.[1]

هذه هي القاعدة، إلا أن الحرم المكي يستثنى من ذلك فيحاسب المرء على القول والفعل وعلى النية أيضـًا. وذلك بنص الآية في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج ﴿٢٥﴾

بمجرد أن نوى الفعل المحرم، عرض نفسه للوعيد بالعذاب، كما حدث لأبرهة الحبشي الذي أهلكه الله وجنده حين همّ بهدم الكعبة المشرفة، ولم يفعل شيئـًا بعد، فأرسل الله عليه وعلى جنده الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول عبرة لكل من يريد السوء في حرم الله الذي تكفل له بالأمن والأمان.

ويعرّف الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله **(الإلحاد)** بقوله: (هو الميل عن الحقِّ، يُقال: ألحد إذا مال، ومنه تسمية اللَّحد في القبر؛ لأنه في الجانب الذي في جهة القبلة، سُمِّي: لحدًا، والملحدون هم الذين مالوا عن الحقِّ والصواب إلى الكفر والضَّلال، أو إلى المعصية).[2]

(١) رواه البخاري رقم (٦٤٩١) ورواه مسلم رقم (١٣١) عن إبن عباس رضي الله عنهما.
(٢) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

فالملحد في الحرم هو العاصي والكافر، فمَن همَّ فيه بإلحادٍ بظلمٍ فهو متوعَّدٌ بالعذاب الأليم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ يُرِد: مُضمن معنى: يهمّ ويقصد، فإذا همَّ بالإلحاد فله الوعيد، فكيف إذا فعل؟! إذا كان مجرد الهمّ يستحق به الوعيد، وإذا فعل ذلك كان أشدَّ وأخطر وأعظم.

والإلحاد يشمل المعاصي وأنواع الكفر: الزاني في الحرم مُلحد، والمغتاب مُلحد، والنَّمَّام في الحرم ملحد، والذي يدعو غير الله مُلحد أعظم إلحادٍ، والذي يُرابي في الحرم مُلحد، والذي يعقّ والديه مُلحدٌ، والذي يقطع رحمه مُلحدٌ، وهكذا سائر المعاصي تتفاوت. والإلحاد يتنوع بعضه أكبر من بعضٍ - نسأل الله العافية وهذا الوعيد يشمل الحرم كله، جميع الحرم، وليس فقط المسجد الحرام...

وفي هذا دلالة على مكانة مكة المكرمة، وأن لها فضائل عديدة فهي مجمع الفضائل وموئل المكارم، ففيها ترفع الدرجات وتغفر السيئات وهي موطن رحمة ودار عبادة.




إضاءة
11
إضاءات قرآنية

لماذا خاطب ربنا المؤمنين بقوله: يا أيها الذين آمنوا؟

تفكرّت مليًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ...﴾ النساء ١٣٦.

وتساءلت: كيف يأمر الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**آمنوا**﴾؟

وهم مؤمنون أصلاً؟ أليس هذا الوصف تحصيل حاصل؟!

تأملت في الآية التي سبقتها بالسورة ذاتها فأدركت أن المقصود بالخطاب هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وليسوا المسلمين.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ النساء ٤٧.

فهم آمنوا بكتبهم السماوية، فدعاهم للإيمان برسول الله، وبالقرآن الكريم، فاستجاب بعضهم لهذا النداء وآمنوا بالله حق الإيمان وبما أنزل على محمد ﷺ مع إيمانهم بالكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ آل عمران ١٩٩.

يقول ابن كثير - رحمه الله في تفسير الآية:

ليس هذا مِن تحصيل الحاصل، بل مِن باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته، والاستمرار عليه؛ كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بصِّرْنا وزِدْنا هدًى، فأمرهم بالإيمان بالله ورسوله، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: القرآن.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾ لأنه نزل مفرَّقًا منجَّمًا على الوقائع بحسَب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتبُ المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ لهذا قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ النساء ١٣٦

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء ١٣٦، أي: فقد خرَج عن طريق الهدى، وبعُد عن القصدِ كلَّ البُعد).

ويقول الإمام الطبري في تفسير الآية الكريمة:

فَإِنْ قَالَ قَائِل: وما وجه دعاء هؤلاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكتبه، وقد سماهم مؤمنين؟ قيل: إنه جلّ ثناؤه لم يسمِّهم مؤمنين، وإنما وصفهم بأنهم آمنوا، وذلك وصف لهم بخصوصٍ من التصديق. وذلك أنهم كانوا صنفين:

أهل توراة مصدّقين بها وبمن جاء بها، وهم مكذبون بالإنجيل والقرآن وعيسى ومحمد صلوات الله عليهما. وصنف أهل إنجيل، وهم مصدّقون به وبالتوراة وسائر الكتب، مكذِّبون بمحمد صلى الله عليه وسلم والفرقان.

فقال جل ثناؤه لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: بِمَا هم به مؤمنون من الكتب والرسل ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُوله﴾ مُحَمَّد ﷺ.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَى رَسُوله﴾ فإنكم قد علمتم أن محمدًا رسول الله، تجدون صفته في كتبكم ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْل﴾ الذي تزعمون أنكم به مؤمنون، فإنكم لن تكونوا به مؤمنين وأنتم بمحمد مكذبون، لأن كتابكم يأمركم بالتصديق به وبما جاءكم به، فآمنوا بكتابكم في اتّباعكم محمدًا، وإلا فأنتم به كافرون. فهذا وجه أمرهم بالإيمان بما أمرهم بالإيمان به، بعد أن وصفهم بما وصفهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.[1]

(١) تفسير الطبري رحمه الله.




إضاءة
12
إضاءات قرآنية

آيات يفهمها بعض الناس خطأً..!

كثيراً ما نستشهد على أهمية العمل والعبادة بقوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة ﴿١٠٥﴾

ونغفل أنها تتضمن معنى آخر، وتشتمل على وعيد للمنافقين، فقد ذكر ابن كثير في تعليقه على الآية قول مجاهد: (هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ، وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة.

كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ الحاقة ﴿١٨﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ الطارق ﴿٩﴾.

وقال ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ العاديات ﴿١٠﴾. وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد.

ويقول الإمام السعدي في تفسير الآية: يقول تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعْمَلُوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه - انتهى كلامه.[1]

(١) تفسير السعدي، الآية (١٠٥) ص (٣٤٧)، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

وقال آخرون: وقل أيها الرسول الكريم لهؤلاء التائبين وغيرهم.

قل لهم: اعملوا ما تشاءون من الأعمال فإن الله مطلع عليها، ونظير هذا استشهاد بعض الخطباء في حديثهم عن الزكاة بقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ التوبة ﴿٧٥﴾، وأن المقصود هو (ثعلبة بن حاطب).

وقد فنّد بعض المفسرين صحة الرواية واستبعدوا أن يكون المقصود بهذه الآية هو ثعلبة بن حاطب، وهو بدري ومن الحفظة ومن كتّاب الوحي [(١)]. كما جاء في تفسير الوسيط للطنطاوي في تعليقه على الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قال بعد أن سرد الرواية: وقد ضعفّ بعض العلماء هذا الحديث، لأسباب تتعلق بسنده، وبصاحب القصة وهو ثعلبة بن حاطب [(٢)].

والذى نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكى صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوي والذين عاهدوا الله فنقضوا عهودهم معه، وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود. وعلق القرطبي على هذه الرواية بقوله: (... وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة) فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم. وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين نبتل بن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» وأورده الهيثم في «المجمع» وغيرهم، وقال الألباني ضعيف جداً.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، الطبقات الكبرى لإبن سعد.

قلت: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم إلا أن قوله فأعقبهم نفاقا يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقا من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى الممات، وهو قوله تعالى: (إلى يوم يلقونه) وأورد السيوطي في (اللآلئ المصنوعة) سند القصة، فقال: هذه القصة فيها ثلاثُ عللٍ:

علة في السند وعلة في المتن، وعلة في عدم ورود صحابي باسم (ذفافة) ورد اسمه في القصة... الخ، وتحدث بإسهاب عن هذه العلل باستفاضة ليس هذا مجال الحديث عنها، إذ المقصود هو عدم نسبة القصة للصحابي ثعلبة بن حاطب فهذا طعن بأمانة وإيمان صحابي جليل وهذا لا يصح، والله أعلم.

ومن الآيات التي يفهمها بعض الناس خطأً أيضـًا، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المائدة ﴿١٠٥﴾.

فيقولون: ما دمت على هداية فلا شأن لك بغيرك، اهتم بنفسك فقط.

جاء في تفسير ابن كثير: يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبرا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريبـًا منه أو بعيداً.

قال العوفي، عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به.

وليس في الآية مستدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكنـًا، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير - يعني ابن معاوية - حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، حدثنا قيس

قال: قام أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة ﴿١٠٥﴾.

إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: **(إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، عزّ وجل، أن يعمهم بعقابه)** [1].

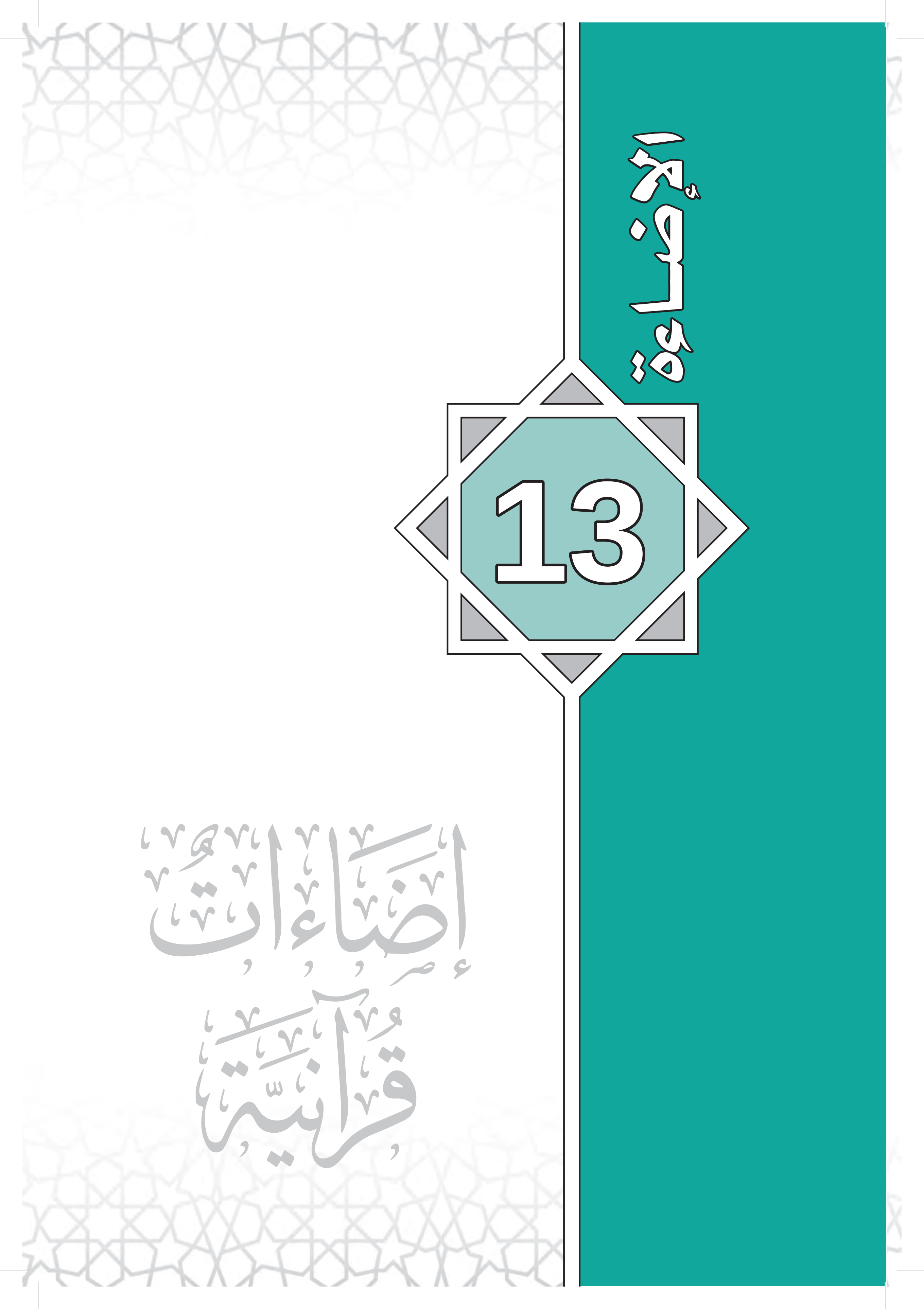
وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت [2].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في نزول العذاب (٤/ ٤٦٧) رقم (٢١٨٦)، وأبوداود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ١٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة رقم (١٥٦٤).

(٢) ذكره الإمام الطبري في تفسيره (١١/ ١٤٨).




إضاءة
13
إضاءات قرآنية

لماذا قال إبراهيم عليه السلام (بلداً) ثم قال (البلد)؟

ورد ذكر البيت الحرام في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مرة نكرة (بلداً) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا...﴾ البقرة ١٢٦. ومرة معرفاً (البلد) كما في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ إبراهيم ٣٥.

فلم اختلف الاسم؟

حين وصل إبراهيم عليه السلام إلى مكة أول مرة وهي مكان البيت الحرام، كانت مجرد واد مقفر لا زرع فيه ولا ضرع بين الجبال لا يسكنه أحد، فدعا ربه أن يتحول هذا الوادي إلى بلد آمن فقال: (رب اجعل هذا بلداً آمنا) وأن تهوي إليه أفئدة من الناس ليعمروا المكان، كما قال تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إبراهيم ٣٧، ومضى على هذه الزيارة الخاطفة سنوات، فلما عاد إبراهيم عليه السلام الى مكة بعد دهر من الزمان، وجدها قد عمرت وتحولت إلى دار مقام للقبائل، ومحطة استراحة للمسافرين وللقوافل، واستقر بها المهاجرون بحثاً عن الكلأ والماء وطلباً للرزق، وجد البيت الحرام وسط مكة وقد أحاطت به البيوت والأسواق التي يؤمها الناس، ويأمن عندها المسافر، وأصبحت معروفة ومشهورة بين الناس، لذا قال: ﴿... رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ فلم تعد مكة نكرة كما كانت في السابق بل أصبحت معرفة مشهورة فقال (**البلد**) وهذا هو سبب تغير الكلمة من (**بلداً**) الى (**البلد**).


إضاءة
14
إضاءات قرآنية

مفهوم آخر لمعنى (إن الله يرزق من يشاء...)

الشائع بين الناس أن كلمة (يرزق من يشاء) تعني أن الرزق بيد الله، يمنحه من يشاء ويمنعه عمن يشاء كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الشورى ٢٧.

لا شك أن هذا المعنى صحيح وهو المتعارف عليه، إلا أننا إذا تأملنا في هذه الآية: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران ٣٧، لوجدنا لها معنى آخر غير المعنى الدارج.

ولنتوقف عند كلمة مريم عليها السلام: **(من يشاء)**...

الفعل هنا يعود على من؟ قد يعود على الرب جل وعلا وهو المشهور، وقد ينصرف الى العبد، فإنه إذا شاء أن يحقق له ربه سؤاله ورغباته، وألح في الدعاء لينال مراده، واستوفى شروط الدعاء وآدابه وتحرى أوقات الإجابة ولم يستعجل، إذا كانت عنده الرغبة القوية، فإن الله يستجيب له ولا يخيب رجاءه، إذ لم يكن زكريا عليه السلام يجهل مشيئة الله، لكن مريم لفتت نظره إلى مشيئته هو، وأن عليه أن يلجأ للدعاء برغبة شديدة وملحة، فانتبه زكريا لهذا المعنى الجميل، وهو ما جعله يهرع إلى المحراب لينهل من هذا المعين ويناجي ربه، يحدوه الأمل أن يستجيب الله لدعائه ويحقق رجاءه، وتم له ما أراد: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ...﴾ آل عمران ٣٨.

ظلت هذه الخواطر تراود تفكير النبي زكريا عليه السلام إلى أن سمع منها هذه الكلمة (إن الله يرزق من يشاء) هنا أدركت النبي زكريا حالة جديدة، ودخل في تأمل عميق؛ فلقد أثار هذا الحدث غير العادي في نفسه الحنين إلى الولد، والرغبة في البنين، رغم أنه أصبح طاعنًا في السن، وحال زوجه كذلك...

توجه إلى الله بعقل حاضر، وقلب خاشع، ولسان صادق، وتجلى في دعائه بأسمى الأدب مع خالقه حيث توسل إليه سبحانه بضعف بدنه، وبتقدم سنه، وبما عوده إياه من إجابة دعائه في الماضي...

وتظهر الرغبة الشديدة وقت المحن، حين يرنو المضطر إلى السماء ويجأر بالدعاء ليكشف الرب عنه الكرب والبلاء، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ النمل ٦٢. فهو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل.

• **فـائـدة:**

يورد ابن القيم رحمه الله عن بعض العارفين أنَّه رأى في بعض السِّكك بابًا قد فُتِح وخرج منه صبيٌّ يَستغيث ويَبكي، وأمُّه خلفه تَطرده، حتى خرج، فأغلقَت البابَ في وجهه ودخلَت، فذهب الصبيُّ غير بعيد، ثمَّ وقف مفكِّرًا، فلم يجد مأوًى غير البيت الذي أُخرِج منه، ولا مَن يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد البابَ مرتجًّا مغلقًا، فتوسَّده ووضع خدَّه على عتبة الباب، ونام، فخرجَت أمُّه، فلمَّا رأَته على تلك الحال لم تملِك أن رمَت بنفسها عليه، والتزمَته، تقبِّله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عنِّي؟ مَن يُؤويك سواي؟! أين تذهب عنِّي؟ مَن يؤويك سواي؟!

ألم أقل لك: لا تخالِفني، ولا تحملني بمعصيتك على خِلاف ما جُبلتُ عليه من الرَّحمة بك، والشَّفقة عليك، وإرادة الخير لك؟ ثمَّ ضمَّته إلى صدرها، ودخلَت به بيتها، فتأمَّل قولها: لا تَحملني بمعصيتك على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة بك، والشَّفقة عليك.

وهكذا العبد لو أنه وقع في الذنوب والخطايا فإنه يرجع إلى ربه مكسوراً حزينًا سائلاً الله العفو والمغفرة.


إضاءة
15
إضاءات قرآنية

لماذا تعجّب زكريا لمّا استجاب الله لدعائه؟!

ما دمنا قد تحدثنا عن قصة زكريا ومريم عليهما السلام، فلنواصل الحديث ونتمعن فيما حدث بعد ذلك:

حينما دعا زكريا عليه السلام ربه بأن يهب له ذرية طيبة، حتماً كان موقناً بأن الله على كل شيء قدير، وأن بيده ملكوت السموات والأرض، فلماذا تعجّب لمّا استجاب الله دعاءه؟ وقدّم الأسباب المانعة للإنجاب بأنه قد بلغه الكبر وامرأته عاقر، وهو يعلم ذلك تماماً قبل أن يدعو؟!

سؤال منطقي لمن يقرأ قصة زكريا عليه السلام في القرآن.

لِـمَ قال: أنى يكون لي غلام، وهو الذي طلب الذرية؟

ولا زالت أذكر جدتي رحمها الله وهي تستغرب هذا الأمر، وتقول بعفوية: كيف تتعجب تعني - زكريا عليه السلام - وأنت الذي طلبت من ربك؟!

لنتأمل سياق الآيات كما جاءت في سورة آل عمران، قال الله عزّ وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ آل عمران ﴿٣٨﴾-﴿٤٠﴾.

وجاء المعنى نفسه في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مريم ﴿٨﴾

سمع نبي الله زكريا عليه السلام النداء، وحاشاه أن يكون غافلاً عن قدرة الله، أو يائساً من رحمة الله واستجابة دعواه، وهو النبي فضلا عن رؤيته السيدة مريم عندما دخل عليها من كرامات ومعجزات تجلت فيها قدرة الخالق سبحانه وتعالى بل أدركه الأمل والرجاء.

وأورد المفسرون أقوالاً متشابهة في توضيح سبب سؤال زكريا عليه السلام.

فقال البغوي في معالم التنْزيل: فإن قيل: لِمَ قال زكريا بعدما وعده الله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؟ أكان شاكـًا في وعد الله، وفي قدرته؟

أنه لم يَشُكّ في وعْدِ الله، إنما شك في كيفيته، أي كيف ذلك: أتجعلني وامرأتي شابين؟ أم ترزقنا ولدا على الكبر منا؟ أم ترزقني من امرأة أخرى؟ قاله مُسْتَفْهِمـًا لا شاكّـًا.

وقال ابن جُزيّ في التسهيل: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ تَعجّب واستبعاد أن يكون له ولد مع شيخوخته وعقم امرأته. ويُقال: كان له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون سنة، فاستبعد ذلك في العادة، مع علمه بقدرة الله تعالى على ذلك، فَسَألَه مع عِلْمِه بِقُدرة الله واستبعده لأنه نادر في العادة، وقيل: سأله وهو شاب، وأُجِيب وهو شيخ، ويُروى أنه كان بين دعائه والوقت الذي بُشِّر فيه أربعون سنه، ولذلك استبعده.

وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: وفي معنى هذا الاستفهام وجهان:

أولاً: أنه سأل هل يكون له الولد وهو وأمراته على حاليهما، أو يُرَدّان إلى حال مَنْ يَلِد.

ثانيـًا: سَألَ هل يُرزَق الولد من امرأته العاقر أو من غيرها؟

وقيل: المعنى بأي مَنْزِلة استوجِب هذا، وأنا وامرأتي على هذه الحال، على وجه التواضع، وقال رحمه الله في تفسيره سورة (مريم):

ليس على معنى الانكار لِمَا أَخْبَرَ الله تعالى به، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يُخرِج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير.

فهذا السؤال من زكريا عليه الصلاة والسلام ليس على سبيل الشك في قُدرة الله، وإنما هو على سبيل الاستفهام.

ونظير هذا تعجُّب «سارة» روجة إبراهيم عليه السلام حين بُشِّرت بأنها ستلد إسحاق فقالت:-

﴿قالت ياريلتا أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخًا أنّ هذا لشيء عجيب﴾ هود ﴿٧٢﴾، وكلمة (يا ويلتاه) تقولها العرب عند التعجب أو الإستنكار من شيء. كما حاء هذا المعنى في سورة هود أيضًا، وردَّ عليها الملائكة: ﴿**قالوا أتعجبين من أمر الله**﴾ هود ﴿٧٣﴾، أي لا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير.

وهذا يُشبه سؤال الملائكة لما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

فهذا ليس على سبيل الاعتراض، وإنما هو على سبيل السؤال والاستفهام والاستعلام والاستخبار؛ لأنه لم يكن يعلم أن الله سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها.

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب الخارق للعادة، رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته، أو أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتي الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته وليس المقصود استحالة ذلك إلى قدرة الله تعالى، لأنه لا يعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ آل عمران ﴿٤٠﴾.

أي: مثل ذلك الفعل العجيب، والصنع البديع الذي رأيته من أن يكون لك ولد، وأنت شيخ كبير، وامرأتك عاقر؛ لأنه سبحانه هو خالق الأسباب والمسبَّبَات، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبقدرته أن يغير ما جرت به العادات بين الناس.


إضاءة
16
إضاءات قرآنية

(لا تسألوا عن أشياء - فأسألوا أهل الذكر).. كيف نوفق؟

كيف نوفق بين آيتين: الأولى فيها حث على سؤال أهل العلم، والثانية فيها نهي عن السؤال؟!

الآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء ۝٧

والثانية هي قوله جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ المائدة ۝١٠١

إن كلمة (لا تسألوا) تجعل المرء يتحرج عن سؤال العلماء التزاماً بفهمه لهذه الآية، ويظن أن الرب جل وعلا نهى عن السؤال حتى لا نسمع جواباً قد لا نحبه، وربما وقع المسلم بالحرام من حيث لا يدري لأنه امتنع عن سؤال أهل العلم وجهل الحكم الشرعي، وواقع الأمر أن الآية التي تنهى عن السؤال لها دلالة تختلف عن هذا الفهم.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (هذه الآية نزلت في عهد النبوة، عهد التحليل والتحريم ونزول الأحكام، فربما سأل عن شيء لم يحرم فيحرم لمسألته، أو شيء ليس بواجب فيوجب)!

كما قال ﷺ: (**فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**) رواه البخاري ومسلم.

أما بعد انقطاع الوحي واستقرار التشريع، للمسلم أن يسأل عن كل ما يهمه في شؤون حياته ليطمئن إلى صحة عقيدته وعباداته ومعاملاته، له أن يسأل

عن كل شيء أشكل عليه بشرط ألا يكون من التعمق في الدين كالسؤال عن تفاصيل اليوم الآخر...) انتهى [١]

وذكر أبو جعفر أن هذه الآية أنزلت على رسول الله ﷺ بسبب مسائل كان يسألها إياه أقوام، امتحانـًا لـه أحيانًا، واستهزاءً أحيانًا! فيقول أحدهم: «من أبي»؟ ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته: «أين ناقتي»؟

فقال لهم تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ المائدة ١٠١.

يقول: إن بينا لكم حقيقة ما تسألون عنه ساءكم إبداؤها وإظهارها!

بل إن التشدد في السؤال قد يوقع صاحبه والأمة جمعاء بالمشقة كما فعل أحد الصحابة لما سمع النبي ﷺ يتحدث عنه فريضة الحج.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله ﷺ: **(لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم ثم قال ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه).** [٢]

● فائدة جليلة تتعلق بالسؤال الشرعي:

هناك آية تكررت بنصها في موضعين من كتاب الله تعالى:

الموضع الأول في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل ٤٣- ٤٤.

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧).
(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

والموضع الثاني: في سورة الأنبياء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء ٧.

وكلا الآيتين جاء في سياق إرشاد الكفار المعاندين والمكذبين إلى سؤال من سبقهم من أهل الكتاب، وفي هذا الإرشاد إيماء واضح إلى أن أولئك المشركين المعاندين جهال ولا يعلمون، وإلا لما كان في إرشادهم إلى السؤال فائدة.

وإذا تأملت أيها القارئ الكريم في هذه القاعدة مع سياقها في الموضعين من سورة النحل والأنبياء، خرجت منها بأمور: أنها توجيه لسؤال أهل الكتاب، وفي الوقت نفسه سؤال علماء المسلمين أيضاً.

قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير الآية السابقة:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبأ الأولين، وشككتم: هل بعث الله رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها [1].

ثم قال: وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

(١) تفسير السعدي للآية (٤٣) من سورة النحل ص (٤٤١)، مكتبة الرشد.



إضاءة
17
إضاءات قرآنية

الفرق بين أكملت، وأتممت؟

حين تقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ المائدة ③، تتساءل: ما الفرق بين أكملت، وأتممت؟

لماذا لم يقل الله سبحانهُ وتعالى: اليوم **(أكملتُ)** لكُم دينكُم و**(أكملتُ)** عليكُم نعمتي؟!

الجواب أن أكمل الأمْرَ: أي أنهاهُ على مراحل مُتقطّعة، بينها فواصل زمنيّة كمن أفطر أيّام في رمضان لعذر يمكنه الصيام فيما بعد، لديه فرصة أحد عشر شهراً لقضائها ولو على فترات متقطّعة، لذلك قال تعالى: **﴿ولتُكْملوا العِدّة﴾**.

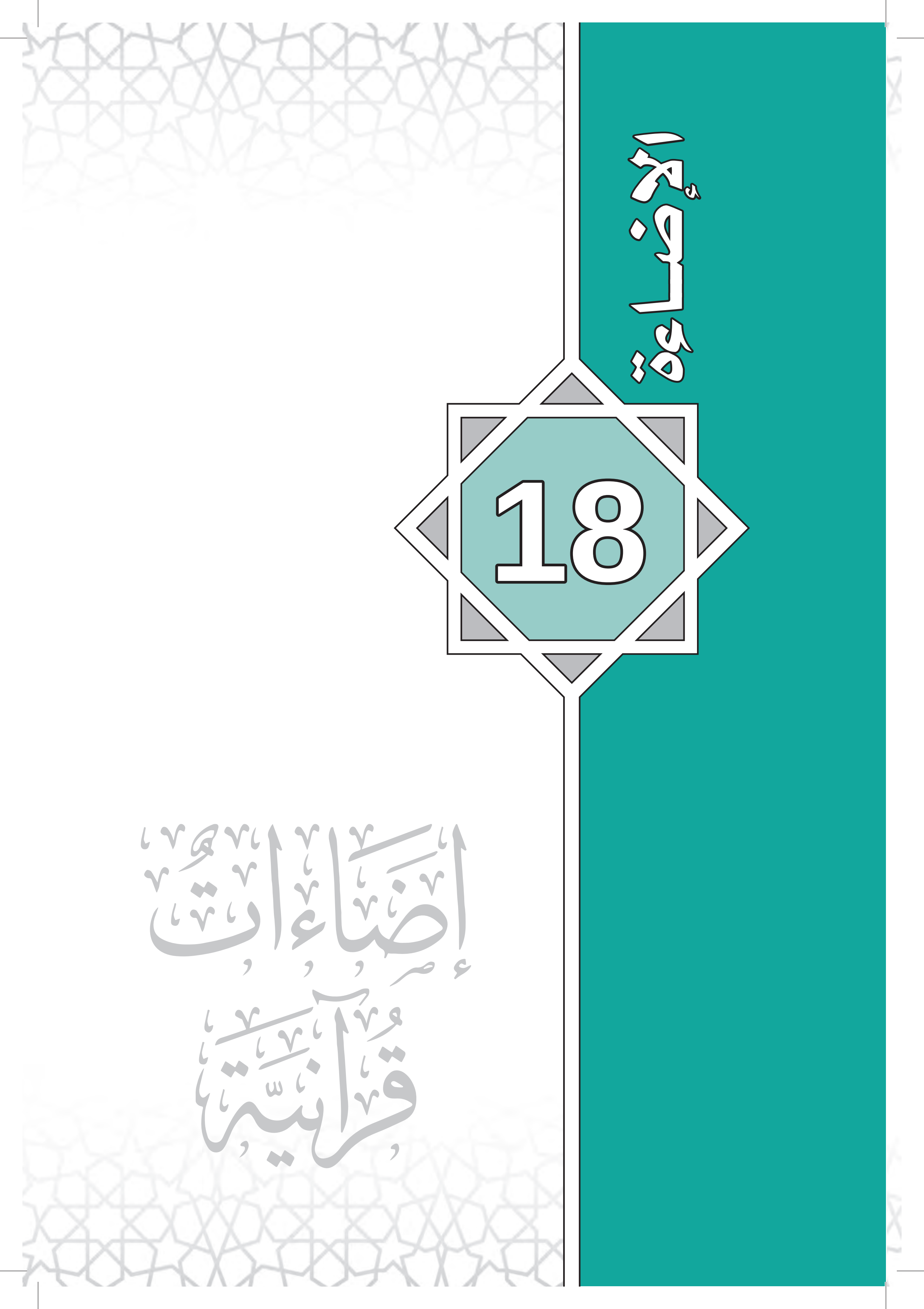
أما (أتـمّ الأمر) فيجب أنْ لا ينقطع العمل حتّى ينتهي...

فلا يجوز مثلاً الإفطار في أثناء النهار في يوم الصيام، ولو لفترة قصيرة جدّاً لذلك يقول الله تعالى: **﴿ثُمّ أتِمّوا الصيام إلى الليل﴾** ولم يقل **(أكملوا)** وكذلك لا يجوز للحاج أن يتحلّل مِنَ الإحرام حتى ينتهي من شعائر الحج، لذلك يقول الله تعالى: **﴿وأتمّوا الحجّ والعُمرة للّه﴾** ولم يقل: أكملوا الحجّ.

ويبقى السؤال: لماذا الدين (أُكْمل) بينما النعمة (أُتِمّت)؟ لأنَّ الدين نزل على فتراتٍ متقطّعة على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، ولكن المُلفت والجميل أن نعمة الله لم تنقطع أبداً، فقال **(وأتممتُ عليكُم نعمتي)** فنِعْمةُ اللّه لمْ تَنقطع، ولا حتى ثانية واحدة على هذه الأمّة، فما أوسع كرم الله.

● فائدة جميلة من ابن القيم، يقول رحمه الله:

تأمل حسن اقتران التمام بالنعمة واقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم **(دينكم)** إذ هم القائمون به والمقيمون له، وأضاف النعمة إليه، **(نعمتي)** إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم.


إضاءة
18
إضاءات قرآنية

هل فعلاً بيت العنكبوت أوهن البيوت...؟

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت ﴿٤١﴾.

استوقفتني كثيرا هذه الآية، ورجعت إلى كتب التفسير، ووجدت أنها أجمعت على أن المقصود ببيت العنكبوت في هذه الآيات هو البيت المادي بمعنى المسكن الذي تتخذه العنكبوت سكنًا لها، وقد وصفت كتب التفسير بيت العنكبوت على أنه لا يغني عنها شيئا كما قال الطبري: هو أضعف البيوت لا يقيها حراً ولا برداً، وذكر القرطبي بأنه ضعيف وواهن. وكذا قال ابن كثير: ضعيف وابن حيان الأندلسي: لا بيت أضعف منه والشوكاني: من أضعف البيوت والسعدي: أضعف البيوت لتفاهته وحقارته، والصابوني: لا يرى شيء يدانيه في الوهن، وهكذا ذكر الآخرون.

فالإمام الطبري يعلق على الآية بقوله:

(مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نَصْرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم وقبح رواياتهم وسوء اختيارهم لأنفسهم)، ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها وهكذا بقية المفسرين...

• رأي العلم:

غير أن العلم الحديث أثبت أن نسيج العنكبوت هو من أقوى الأنسجة الطبيعية وأن صلابته تزيد على صلابة الحديد الصلب حتى سمي بالصلب الحيوي، وأن بيت العنكبوت - المسكن - هو من أقوى البيوت المعروفة من ناحية متانة نسجه الذي يستطيع أن يقاوم الرياح العاتية، ويمسك في نسجه فرائس العنكبوت فلا تستطيع منه فكاكا.

الحقائق العلمية تقول: إن خيوط العنكبوت الحريرية تتكون من بروتين يتم تصنيعه في غدد الحرير. والحرير المنتج قوي جداً ومتانته أشد من متانة الحديد الصلب وهو قابل للتمدد لضعفي طوله قبل أن ينقطع وهو يعد من أقوى أنواع الألياف الطبيعية على الإطلاق.

وشبكة العنكبوت من القوة بمكان حتى إنها تستطيع إيقاف نحلة يزيد حجمها عن حجم العنكبوت مرات عديدة وهي تطير بسرعة ٣٢ كلم في الساعة من دون أن تتأثر أو تتمزق، ومما سبق يتضح أن بيت العنكبوت بمعنى السكن هو بحق من أقوى بيوت المخلوقات المعروفة إن لم يكن أقواها.

وقد نشر الدكتور صلاح رشيد في مجلة «**رابطة العالم الإسلامي**» بحثاً قيماً حول هذه المسألة، قال فيه: (لإيماني المطلق أن الحقائق العلمية لا يمكن أن تتعارض مع ما ذكر في القرآن الكريم فإن تعارضت فلا شك أن ما أثبته القرآن هو الحق وأن العلم البشري قد جانب الحقيقة، فقد رجعت إلى القرآن الكريم وكُتب التفسير وقواميس اللغة العربية ومعاجمها وللحقائق العلمية عن العنكبوت وبيته ومعيشته وعلاقاته الاجتماعية لِأَرى إن كان المقصود بالآيات يختلف عن ما ذهبت إليه كتب التفسير.

وبحثت عن معنى كلمة (**بيت**) في القواميس والمعاجم العربية لأرى هل استعمل العرب كلمة بيت بمعنى آخر غير المعنى الدارج وهو المسكن ليكون هو المقصود بكلمة بيت في هذا المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت. ثم بحثت في الحقائق العلمية عن نسيج وبيت أو (**مسكن**) العنكبوت لأرى مدى قوة هذا النسيج وهذا المسكن وهل هو بحق أضعف المساكن كما ذهبت إلى ذلك كتب التفسير؟ ثم بحثت في العلاقات الاجتماعية للعناكب لأرى نوع العلاقة بين ذكور العناكب وإناثها وصغارها وهم آل البيت الواحد حيث تطلق العرب كلمة بيت أيضًا على الزوجة والأولاد.

ثم ربطت نتائج ما سبق بعضها ببعض لأرى إن كان هناك احتمال تفسير آخر للآيات، وبحثت في الحقائق العلمية عن معيشة العناكب وعلاقاتها الاجتماعية فوجدت أن العناكب أمّة من الأمم ويوجد في العالم أكثر من ثلاثين ألف نوع من العناكب تتفاوت في الأحجام والأشكال ونمط المعيشة ويغلب عليها المعيشة الفردية والعدائية لبعضها بعضًا، ولا يوجد إلا أنواع قليلة جدًّا تعيش في جماعات. والإناث أكبر حجمًا من الذكور، والزوجان من العناكب يلتقيان في الغالب وقت التزاوج فقط ويقوم الذكر قبل الجماع برقصات وطقوس معينة أمام الأنثى يقصد منها الحد من الغريزة العدوانية لدى الأنثى، وعند انتهاء عملية التلقيح يغادر الذكر في الغالب عش الأنثى خوفًا منها لأنها عادة تقوم بقتله بعد الانتهاء من عملية التلقيح، وهو ما يحدث بين كثير من أنواع العناكب وأكثرها شهرة عنكبوت الأرملة السوداء التي سميت بذلك لأن الأنثى تقتل ذكرها بعد انتهائه من عملية التلقيح. أما بعض أنواع العناكب فتترك الأنثى الذكر ليعيش في العش بعد عملية التلقيح ليقوم الأبناء بقتله وأكله بعد أن يخرجوا من البيض.

وفي أنواع أخرى تقوم الأنثى بتغذية صغارها حتى إذا اشتد عودهم قتلوا أمهم وأكلوها. ومما سبق يتضح أن البناء الاجتماعي والعلاقات الأُسرية في بيت العنكبوت تتصف بأنها مبنية على مصالح مؤقتة حتى إذا انتهت هذه المصالح انقلب الأفراد أعداء وقام بعضهم بقتل بعض. فهذه أنثى العنكبوت تسمح للذكر بدخول عشها لوجود مصلحة التلقيح حتى إذا قضت أربها منه انقلبت عليه وقامت بقتله وأكله، وأخرى تقدم زوجها طعاما لأولادها، وفي نوع آخر يأكل الصغار أمهم أول ما تقوى أعوادهم.

وهذا العداء الشديد الذي يتجلى فقط بعد انقضاء المصالح، وهذه العلاقات الهشة الضعيفة بين أفراد بيت العناكب يجعل هذا البيت بحق أَوْهَى بيوت المخلوقات المعروفة.

ثم يقول د. صلاح رشيد: وعلى ذلك فإني أرى والله أعلم أنه من غير الراجح أن المقصود ببيت العنكبوت الذي وصفه القرآن بأنه أوهن البيوت هو شبكة العنكبوت التي يتخذها سكنا ومصيدة لفرائسه. بل لعل المقصود ببيت العنكبوت أسرة العنكبوت التي هي بحق أَوْهَى الأسر ترابطا وتآلفا، كما بيّنّا. وقد ذكرنا أن العرب استخدموا كلمة (**بيت**) بمعنى امرأة الرجل وعياله. وقد أثبت العلم الحديث أن العلاقة الأسرية بين العناكب علاقة تحكمها المصلحة حتى إذا انقضت المصلحة انقلبوا أعداء يقتل بعضهم بعضا كما فصّل سابقا، ولا تجتمع هذه الخصال السيئة والعلاقات الهشة في أي بيت لمخلوق آخر مما يجعل بيت العنكبوت بمعنى المرأة والأولاد هو أوهن بيوت المخلوقات قاطبة.

ويتجلى في هذه الآيات صورة من صور الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فهذه الحقائق عن بيوت وحياة العناكب لم يتم اكتشافها إلا حديثا وهي تصف بدقة واقع حال بيت العناكب على أنها أوهن البيوت حيث أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة قبل أكثر من ألف سنة من اكتشافها.

وعند النظر إلى آخر الآية المذكورة نجد أنها ختمت بقوله تعالى:

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يوحي بأنهم لم يكونوا يعلمون المقصود لأن هذه الحقيقة العلمية لم تكن معروفة للبشر وقت نزول القرآن الكريم.





إضاءة
19
إضاءات قرآنية



لماذا شبه الناس بالفراش مرة.. وبالجرّاد مرة أخرى؟

تأملّت في تشبيه القرآن الكريم للناس يوم القيامة مرة بالفراش كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ القارعة ﴿٣﴾.

ومرة بالجراد بقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ القمر ﴿٧﴾

لماذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً للناس يوم القيامة مرة بالجراد المنتشر؟

ومرة أخرى بالفراش المبثوث؟... ما الفرق بينهما؟

لقد شبههم بالآية الأولى بالفراش المبثوث، وفي الثانية بالجراد المنتشر، فما وجه الاختلاف بينهما؟

أما تشبيه الناس بالفراش المتفرق فهو في الكثرة والانتشار، والمجيء والذهاب على غير نظام، وكثرة الاكتظاظ على أرض المحشر؛ والحيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ؛ بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ الكهف ﴿٩٩﴾.

أما وجه تشبيههم بالجراد فقيل: الكثرة، والتتابع ووحدة الاتجاه. وهذا يشاهد في أسراب الجراد فهي تتشابه مع الفراش في الكثرة لكن تختلف في أن أسراب الجراد تتحرك جميعها بسرعة وفي اتجاه واحد، بينما الفراش المبثوث فيه الاضطراب والحيرة وعدم الانتظام.

متى يكون الناس كالجرّاد، ومتى يكونون كالفراش؟

أما في أول بعثتهم فيكونون للهول والرعب الذي يكونون فيه كالفراش المبثوث في حيرته واضطرابه.

وقال الحق سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ الزلزلة ۝١-۝٣.

فهو يتساءل من شدة حيرته وذهوله، ماذا يحدث عندما يسمعون الداعي؟ قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ القمر ۝٦ - ۝٨. فتشبيههم بالجراد المنتشر في سورة القمر بعد سماعهم للداعي (قيل انه إسرافيل) أي يتجهون جميعهم الأولون والآخرون إليه، فيزداد رعب الكافر كما قص الله علينا في سورة إبراهيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ إبراهيم ۝٤٢-۝٤٣، أي تبقى أبصارهم مفتوحة مبهوتة، لا تتحرك الأجفان من الفزع والهلع، ولا تطرف العين من هول ما ترى، مهطعين مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء مما حولهم، لا يطرفون بأعينهم من الخوف والجزع، وقلوبهم خاوية خالية من كل خاطر من هول الموقف.

ما أعظم بلاغة القرآن وما أروع تصويره للمواقف حتى كأنك ترى المشهد ماثلاً أمامك.





إضاءة
20
إضاءات قرآنية

سورة القصص بدأت ببشارة.. وانتهت ببشارة..!

كما بدأت قصة يوسف عليه السلام برؤيا، وانتهت بتفسير هذه الرؤيا، كذلك سورة القصص بدأت ببشارة لأم موسى عليه السلام، وانتهت ببشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، بدأت بوعد وانتهت بوعد.

في مطلع السورة نجد أمرا إلهيًا لأم موسى أن تلقي وليدها في اليم مع وعد إلهي برده إليها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ القصص ٧.

وقد تحقق الوعد الذي لاريب فيه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص ١٣.

وفي ختام السورة نجد وعداً مماثلاً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يرده ربه إلى قرة عينه إلى أم القرى، كما رد موسى إلى أمه!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ القصص ٨٥.

عاد موسى لأحضان أمه، وعاد المصطفى عليه الصلاة والسلام لأم القرى مكة المكرمة التي خرج منها مرغماَ، وقلبه معلق بها حين خرج مكرهـاً.

عن عبدالله بن عدي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت).** [1]

(١) رواه أحمد وإبن ماجه والترمذي وصححه

وفي رواية: **(أنت أحب بلادِ الله إلى الله، وأنت أحبُّ بلاد الله إليَّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك)**. [1]

يقول القرطبي: ختم الله تعالى السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة قاهرا لأعدائه، ومعاد الرجل: بلده، لأنه ينصرف ثم يعود.

وقال مقاتل: خرج النبي محمد ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها فقال له جبريل إن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ القصص ﴿٨٥﴾، أي إلى مكة ظاهرا عليها.

هكذا القرآن دومًا يحوي كنوزاً لا تنضب من العبر والعظات لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) رواه الطبري وإبن كثير، وصححه القرطبي في تفسيره.





الأضحية
21
إضاءات قرآنية

آية تدعو للسلم.. وأخرى تدعو للحرب! كيف نوفق بينهما؟

آيتان تدعوان إلى السلم، والثالثة لا تدعو إلى السلم!

كيف نوفق بينهما؟... لنتأمل الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ البقرة ٢٠٨.

والثانية: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ الأنفال ٦١، ولننتقل إلى الآية الثالثة: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد ٣٥.

قد بسط أهل التفسير الحديث في هذا الأمر، وبينوا أن الدعوة إلى السلم إنما كانت مرحلة من مراحل الدعوة وجهاد المشركين، ومال آخرون إلى أن المراد بالسلم هو الإسلام.

ولنستعرض أقوال أئمة التفسير لتتضح لنا الصورة جلية:

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ البقرة ٢٠٨، كونوا على ملة واحدة، واجتمعوا على الإسلام واثبتوا عليه.

ونقل القرطبي عن مجاهد وابن عباس قولهم: السلم هنا بمعنى الإسلام.

ومنه قول الشاعر الكندي: دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرينا، أي إلى الإسلام لما ارتدت كندة بعد وفاة النبي ﷺ مع الأشعث بن قيس الكندي، ولأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول في المسالمة التي هي الصلح، وإنما قيل للنبي ﷺ أن يجنح للسلم إذا جنحوا له، وأما أن يبتدئ بها فلا. وقال طاووس ومجاهد: ادخلوا في أمر الدين، وقال الكسائي: السلم والسلم بمعنى

واحد، يقعان للإسلام والمسالمة، وفرق أبو عمرو بن العلاء بينهما، فقرأها هنا: ادخلوا في السلم وقال هو الإسلام. وقرأ التي في (**الأنفال**) والتي في سورة (**محمد** ﷺ) السلم بفتح السين، وقال: هي بالفتح المسالمة.

قال الجوهري: والسلم الصلح، يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث، وأصله من الاستسلام والانقياد، ولذلك قيل للصلح: سلم.

قال أبو جعفر: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ وإما تخافنّ من قوم خيانة وغدرًا، فانبذ إليهم على سواء وآذنهم بالحرب ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ الأنفال ٦١ وإن مالوا إلى مسالمتك وترك الحربَ، إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بموادعة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح (فاجنح لها)، وعن قتادة: (وإن جنحوا للسلم) قال: للصلح، ونسخها قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ التوبة ٥

وكانت هذه قبل نزول سورة «براءة» وكان نبي الله ﷺ يوادع القوم إلى أجل، فإما أن يسلموا، وإما أن يقاتلهم. وقال الله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ التوبة ٣٦، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يقولوا (لا إله إلا الله) ويسلموا، وأن لا يقبلَ منهم إلا ذلك. وكلُّ عهد كان في هذه السورة وفي غيرها، وكل صلح يصالح به المسلمون المشركين يتوادعون به، فإن (براءة) جاءت بنسخ ذلك، فأمر بقتالهم على كل حال حتى يقولوا: (لا إله إلا الله).

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد ٣٥

أي فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد المشركين وتجبُنوا عن قتالهم وقال مجاهد ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ والله معكم بالنصر لكم عليهم.




إضاءة
22
إضاءات قرآنية

هل يخلّد المسلم القاتل في النار؟

ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة أن المسلم العاصي أو الظالم أو المذنب ممن رجحّت سيئاته على حسناته يوم القيامة أنه يدخل النار بحسب عمله، لكنه يخرج من النار ولا يخلد فيها كالمشرك ومآله إلى الجنة، فيخرج منها كل من مات على التوحيد ولو كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، كما قال رسول الله ﷺ: (**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنُ شَعِيرَةٍ، ويَخرُجُ من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان وفي قلبه وزن من الخير**)[1].

فكيف نوفق بين هذا الحديث الصحيح، وبين قول الله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء ٩٣

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ الفرقان ٦٨-٦٩

فهل يُخلّد المسلم العاصي مرتكب الكبائر في النار كالقاتل والزاني أم لا؟

سُئَل الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله:

ماذا يجب على من وقع في جريمة الزنا للخلاص من آثار فعلته تلك؟

فأجاب: (الزنا من أعظم الحرام وأكبر الكبائر، وقد توعد الله المشركين والقتلة بغير حق والزناة بمضاعفة العذاب يوم القيامة، والخلود فيه صاغرين مهانين،

(١) الراوي: أنس بن مالك، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري ص أو الرقم (٤٤) التخريج: أخرجه البخاري (٤٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

لعظم جريمتهم وقبح فعلهم) كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا﴾ الفرقان ﴿٦٨﴾ -﴿٦٩﴾.

فعلى من وقع في شيء من ذلك التوبة إلى الله سبحانه وتعالى التوبة النصوح، واتباع ذلك بالإيمان الصادق والعمل الصالح، وتكون التوبة نصوحاً إذا ما أقلع التائب عن الذنب، وندم على ما مضى من ذلك، وعزم عزماً صادقاً على أن لا يعود في ذلك، خوفاً من الله سبحانه، تعظيماً له، ورجاء ثوابه، وحذر عقابه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ طه ﴿٨٢﴾، فالواجب على كل مسلم ومسلمة أن يحذر هذه الفاحشة العظيمة ووسائلها غاية الحذر، وأن يبادر بالتوبة الصادقة مما سلف من ذلك، والله يتوب على التائبين الصادقين ويغفر لهم.[1]

دلت نصوص أخرى من الكتاب والسنة على أن من استحلها فهو كافر حكمه حكم الكفرة في الخلود في العذاب يوم القيامة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالعاصي كالقاتل والزاني لا يخلد في النار خلود الكفار بل له خلود خاص على حسب جريمته ليس كخلود الكفار، فخلود الشرك خلود دائم ليس له منه محيص وليس له نهاية كما قال تعالى في سورة البقرة في حق المشركين: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ البقرة ﴿١٦٧﴾، وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ المائدة ﴿٣٦﴾-﴿٣٧﴾

---

(١) مجموع فتاوي الشيخ عبدالعزيز بن باز (٩ / ٤٤٢).

أما من دخل النار من العصاة فإنهم يخرجون منها إذا تمت المدة التي كتب الله عليهم، إما بشفاعة الشفعاء وإما برحمة الله سبحانه وتعالى من دون شفاعة أحد، كما جاء في أحاديث الشفاعة المتواترة عن رسول الله ﷺ.

فيبقى في النار أقوام لم يخرجوا منها بشفاعة الشفعاء، فيخرجهم الله منها برحمته ومن دون شفاعة أحد، لأنهم ماتوا على التوحيد.

أما خلود العصاة في النار فإنه بمعنى المكث الطويل، ولكنه ليس كخلود الكفار الذي لا انقطاع له، لأن الخالد في لغة العرب هو الماكث في المكان مكثًا طويلاً، والعرب تسمي الإقامة الطويلة خلودا، كما قال بعض الشعراء يصف قوما: أقاموا فأخلدوا أي أطالوا الإقامة.

فلا يخلد في النار الخلود الدائم إلا الكفرة، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ البلد ﴿١٩﴾-﴿٢٠﴾.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ الهمزة ﴿٨﴾- ﴿٩﴾

نسأل الله العافية والسلامة. وبنحو هذا الكلام قال الشيخ عبدالرحمن بن عبدالخالق اليوسف: الخلود فسره أهل العلم بأمرين: الخلود لمن كان مستحلاً هذا الفعل، فالآية الأولى مثلاً: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة ﴿٢٧٥﴾.

جاءت في الربا، وقال أهل العلم: **(من عاد)** أي عاد إلى أكل الربا.

والعودة هنا ليست للوقوع في الإثم، وإنما لاستحلال هذا الأمر، فإذا استحلوا الربا وساروا فيه وقالوا مثل مقولة المشركين: إنما البيع مثل الربا، فهؤلاء هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

وكذلك الأمر في قوله تعالى:﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء ٩٣.

وهذه أشهر الآيات في الخلود، قال ابن عباس: (قاتل النفس مخلّد في النار)، وبقية الصحابة يقولون إن خلود قاتل النفس هو المكث الطويل وليس كخلود الكفار، ربما يتوب الله عليه فيخرجه من عذاب النار وينجو. وهذا إن شاء الله هو الصحيح، وهناك قول آخر لابن عباس: (أنه لا يخلد خلود الكفار وأنه ليس بكافر)، وبقوله هذا يكون وافق ما ذهب إليه بقية الصحابة وأهل السنة[1].

(١) بحث للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق اليوسف نشر في الموقع الإلكتروني (طريق الإسلام).




إضاءة
23
إضاءات قرآنية

هل يموت الإنسان موتة واحدة، أم موتتين؟

تدبّرت قوله تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأولى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ الدخان ﴿٥٦﴾، التي تبين هذه الآية أن الإنسان يذوق الموت مرة واحدة في عمره، ثم تأملت في آيتين تتحدثان عن موتتين..

الأولى، قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ غافر ﴿١١﴾.

والثانية، في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة ﴿٢٨﴾.

فكيف نوفق بينهما؟ هل يموت الإنسان مرة واحدة، أم مرتين؟

عرض القرآن الكريم حقيقة الموت في مواطن شتى، وتباينت الآيات في طريقة العرض والكلمات، وبمراجعة كتب التفسير زال الإشكال، وتبين المراد من كل آية، عندما جاءت كلمة الموت مرة مفردة (موتة) ومرة مزدوجة (موتتان).

نقل الطبري عن قتادة قوله في هذه الآية ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هي التي في (**سورة البقرة**):

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة ﴿٢٨﴾. وقال ابن عباس في تفسير الآية ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ كنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم،

ثم يميتكم موتة الحق فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى، فهاتان موتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ وجاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ هذا استثناء منقطع ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **(يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فيُنادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرُون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآهُ، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرُون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآهُ، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موتَ، ويا أهل النار خلودُ فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[1].

● فائدة جميلة:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ الزمر ﴿٣٠﴾، وقال عزّ وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الأنعام ﴿١٢٢﴾.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ...﴾ المائدة ﴿٣﴾

ما الفرق في المعنى بين كلمة **(ميّت)** بالتشديد، وكلمة **(ميت)** بالتخفيف في القرآن الكريم؟

الجواب: الميّت بالتشديد: هو الحي الذي فيه الروح، والميت بالتخفيف: هو الذي خرجت روحه منه[2].

(١) رواه البخاري، رقم الحديث (٤٧٣٠) – عن أبي سعيد الخدري – الموسوعة الحديثة.
(٢) لطائف بعض الآيات القرآنية – الدكتور فاضل صالح السامرائي أستاذ النحو في جامعة الشارقة.





إضاءة
24
إضاءات قرآنية

لماذا شعر رسل الله عليهم السلام باليأس..؟

اليأس هو شعورٌ داخليّ يُجلب الحُزن، وعدم التفاؤل، ويصيب الإنسان بالإحباط والاكتئاب، ومن الناس من أصيب باليأس والقنوط، بسبب قلة صبره وتحمّله واستعجاله للنتائج؛ فإنّ ضَعْفَ النفوس عن تحمّل البلاء والصبر عليه، واستعجالَ حصول الخير، باعث على اليأس والقنوط، لاسيما مع طول الزمن واشتداد البلاء على الإنسان.

وجاء ذكر هذه الحقيقة في عدة مواطن في القرآن الكريم.

فقال سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قالَ وَمَنْ يَقنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالونَ﴾ الحجر﴿٥٦﴾، وقال عزّ وجل على لسان يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف ﴿٨٧﴾. وقد يتذبذّب مزاج الإنسان بين الأفراح والأتراح بحسب تقلب الأحداث التي تحيطه: ﴿وَإذا أذقنَا النَّاسَ رَحْمَة فرحُوا بِهَا وَإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَة بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ إذا هُمْ يَقنَطونَ﴾ الروم ﴿٣٦﴾، ويقول سبحانه: ﴿لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإن مَسَّهُ الشَّرّ فَيَئُوسٌ قنُوطٌ﴾ فصلت ﴿٩٤﴾، ويقول عزّ وجل: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرّ كانَ يَؤُوسا﴾ الإسراء ﴿٨٣﴾.

ولكن: هل هذه حالة عامة تشمل جميع الناس، بمن فيهم الرسل والأنبياء؟

هل فعلاً شعر الرسل والأنبياء يوماً باليأس والقنوط؟!

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يوسف ﴿١١٠﴾.

كيف تسلّل الشعور بالإحباط لرسل الله الذي اصطفاهم من بين خلقه، وجعلهم أمناء على رسالاته للبشرية؟

هذا هو الانطباع للوهلة الأولى لمن يقرأ الآية دون تدبر، ويقف عند كلمة ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ ولم يكمل الآية...!

فإن الكلمة التي تليها احتوت الجواب وفسرت الخطاب: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾.

نعم، إنه ليس شعوراً باليأس والقنوط من رحمة الله، وحاشا لرسل الله الكرام أن يتسرّب إليهم ذلك الشعور، وهم الذين بذلوا حياتهم وأفنوها في دعوة أقوامهم دون يأس ولا ملل، كما فعل نوح عليه السلام الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولولا أن الله أخبره بعدم وجود أي بارقة أمل في إسلامهم ما عدا أهله، لما توقف عن الدعوة، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هود ٣٦، فهم يئسوا من استجابة قومهم، ولم ييأسوا من رحمة الله، ومن نصره لدينه ورسله ودعوته.

لذلك كانت وصية الرسل لأتباعهم هي عدم اليأس والقنوط، كما قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف ٧٨.

لا تقنطوا من أن يروِّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفرَجٍ من عنده ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ فإنه لا يقنط من فرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين يجحدون قُدرته على ما شاءَ تكوينه.
وجاء في الوجيز للواحدي: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ يئسوا من قومهم أن يؤمنوا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أيقنوا أنَّ قومهم قد كذَّبوهم ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون أتباع الأنبياء ﴿ولا يردُّ بأسنا﴾ عذابنا[1].

(١) الوجيز للواحدي.

وجاء في تفسير البغوي في كتابه «**معالم التنزيل**»: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾ قال: اختلف القراء في قوله (**كذّبوا**) فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر (**كذبوا**) بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد فمن شدده قال معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي أيقنوا أن الأمم قد كذبوهم تكذيباً لا يرجى بعد إيمانهم والظن بمعنى اليقين. وقال بعضهم معناه حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم استبطاء النصر.[1]

وروي عن ابن عباس أن معناه: وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا ثم تلا قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ﴾.

ولسيّد قطب رحمه الله في كتاب «**في ظلال القرآن**» تعليق جميل على هذه الآية: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول: إنها صورة رهيبة ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفرَ والعمى والإصرارَ والجحودَ. وتمر الأيام وهم يَدْعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكرّ الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة، إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.

تراهم كُذبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟ وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكربُ والحرجُ والضيقُ فوق ما يطيقه بشر، وما قرأتُ هذه الآيةَ والآيةَ الأخرى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا

(١) تفسير البغوي في معالم التنزيل.

يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة ﴿٢١٤﴾.

ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصوّر الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً: ﴿جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِين﴾ تلك سُنّة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون.

ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمِّرًا ماحقًا لا يقفون له، ولا يصدّه عنهم وليّ ولا نصير، ذلك كي لا يكون النصر رخيصًا فتكون الدعوات هزلاً.




إضاءة
25
إضاءات قرآنية

هل نحاسب عن أعمالنا فقط، أم نحمل أوزار غيرنا..؟

اقتضّت حكمة المولى عزّ وجل أن يحمل كل إنسان أوزاره يوم القيامة، وألا يحمل أوزار غيره، وهذا من تمام عدل الله في خلقه، فكل نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تبحث عمن يحمل عنها بعض أوزارها ولن تجد ولو من أقرب الناس إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فاطر ١٧، تستغيث، تلهث، تستنجد، عند أهلها وقرابتها وذوي أرحامها.

فيكون الجواب صارماً: ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فإنه لا يحمل قريب عن قريبه، فالنفس المذنبة الحاملة لذنبها لا تحمل وزر نفس أخرى ولا تجد من يستجيب لها ويحمل عنها بعض ذنبها حتى لو دعت ابنها أو أباها أو أمها فضلاً عن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ سبأ ٢٥، وقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ الأنعام ١٦٤، وقال: ﴿لتجزي كل نفسٌ بما تسعى﴾ طه ١٥

فحال الآخرة ليست بمنزلة حال الدنيا يساعد الحميم حميمه والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه...

ولكن، كيف نوفق بين هذه الآيات، وبين آيات أخرى تؤكد أن الإنسان قد يحمل أوزاره، وأوزار غيره؟

كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ...﴾ العنكبوت ١٢-١٣، فهم سيحملون أثقالهم وأثقال غيرهم!

وكذا قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ النحل ﴿٢٥﴾، فهم سيحملون أوزارهم، وأوزار الذين يضلونهم؟

الواقع أن الآيات الأولى تتحدّث عن مسؤولية كل إنسان عن نفسه وأنه محاسب على عمله ولن يتحمل أحد إثمه وذنبه، أما الآيتان في سورة العنكبوت ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وسورة النحل ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فتبينان أنه إذا ارتكب معصية ودعا غيره لارتكابها ومشاركته بها كالسرقة والزنا ونحو ذلك، فإنه سيحاسب على ذنبه ومعصيته، ويحاسب أيضـاً على ذنب من أضله ودعاه للمعصية، فهو يتحمل وزرين: وزره ووزر من أضلّه، لأنه تسبّب في شيوع المعصية والدعوة إليها، بل ربما كان هو أول من سنّ هذا الفعل...

لذا قال رسول الله ﷺ: **(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيئا)** رواه مسلم.

وفي الصحيحين أيضـاً عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله **أجورهم** قال: **(ما قتلت نفس ظلمـاً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل)**، مصداقـاً لقوله تعالى بعد أن ذكر قتل ابن آدم لأخيه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ المائدة ﴿٣٢﴾.

يقول ابن كثير: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ هذا إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزاراً أخرى بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئـاً.

فهي قاعدة ربانية في كل الشرائع، تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم ﴿٣٣﴾ -﴿٤١﴾.

ولما حرص جماعة من صناديد الكفر في إبقاء بعض الناس على كفرهم، أو إضلال المؤمنين ليرجعوا عن دينهم، أغروهم وقالوا: اتبعوا سبيلنا، ولنحمل عنكم خطاياكم، فرّد الله عليهم هذا العرض الساذج! وقال: وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ العنكبوت ﴿١٣﴾. وقولُه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النحل ﴿٢٥﴾.

فهذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن الدعاة إلى الهدى يثيبهم الله على عملهم وعمل من اهتدى بهديهم، واستفاد من علمهم..

وقال السعدي في تفسيره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه [(١)].

وعلى ضوء ما تقدم يتبين أن المضلون يحملون أوزار من أضلوهم، ويعاقبون على ذلك بسبب إضلالهم إياهم، والضالون يحملون أوزار أنفسهم جراء إتباعهم لأولئك المضلين، فكلا الفريقين محاسب جراء عمله.

(١)تفسير السعدي رحمه الله – الآية (١٨) في سورة فاطر – ص (٦٩٤)، مكتبة الرشد.


إضاءة
26
إضاءات قرآنية

ما الفرق بين (ليطفئوا) و(أن يطفئوا)؟

آيتان تشابهتا في ترتيب الكلمات مع فارق بسيط بالحروف!

الأولى هي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة ٣٢

والثانية هي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصف ٨

فما الفرق بين قوله تعالى **(أَن يُطْفِئُوا)** و**(لِيُطْفِئُوا)** وما الفرق بين **(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ)** و**(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)**؟!

أما آية التوبة فإنها تتحدّث عن الكفار، وآية الصف تتحدّث عن المنافقين، فالكفار يحاربون الإسلام صراحة وعلانية، بغية إطفاء نور الله.. **(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ)**، أما المنافقون فحربهم غير معلنة وغير مباشرة، يعملون في الخفاء، ويخططون بدهاء، وبأساليب في ظاهرها الخير وفي باطنها الشر، والهدف واحد: **(لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ)**!!

كما فعلوا في بناء مسجد **(الضرار)** لمحاربة الإسلام، وهدم الدين، فكان في ظاهره داراً للعبادة، وفي باطنه وفي حقيقته مقراً لاجتماع المنافقين، ووكراً للدسائس والمؤامرات، لذا وصفه المولى جل وعلا بمسجد الضرار ونهى عن الصلاة، وأمر النبي ﷺ بهدمه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ التوبة ١٠٧. فلما كانت إرادة الكفار صريحة قوبلوا بإرادة صريحة: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ وأما

المنافقون لما كان قصدهم بمشاريعهم إنقاص الدين قوبلوا بنقيض قصدهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ وفي هذا بشارة لأهل الإسلام بالانتصار الدائم على أعداء الدين سواء كانوا ظاهرين أو مندسين، فأبشروا فالدين متين، والله غالب على أمره ولو كره الكافرون.

وكان أبو لهب يتتبع المواضع التي يخرج منها نبينا محمد ﷺ أيام الحج محذِّرًا من دعوة الصابئ بزعمه!

فهلك أبو لهب، وتبع محمدًا ﷺ الناس أفواجًا! هذا دين الله لا يوقفه حرب كافر، ولا تشغيب ملحد، ولا تلوّن منافق!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة ﴿٣٢﴾

وقال آخرون: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لو كانت نارا لما أطفأها كلام.. فكيف بنورٍ.. ثم يكون نور الله؟

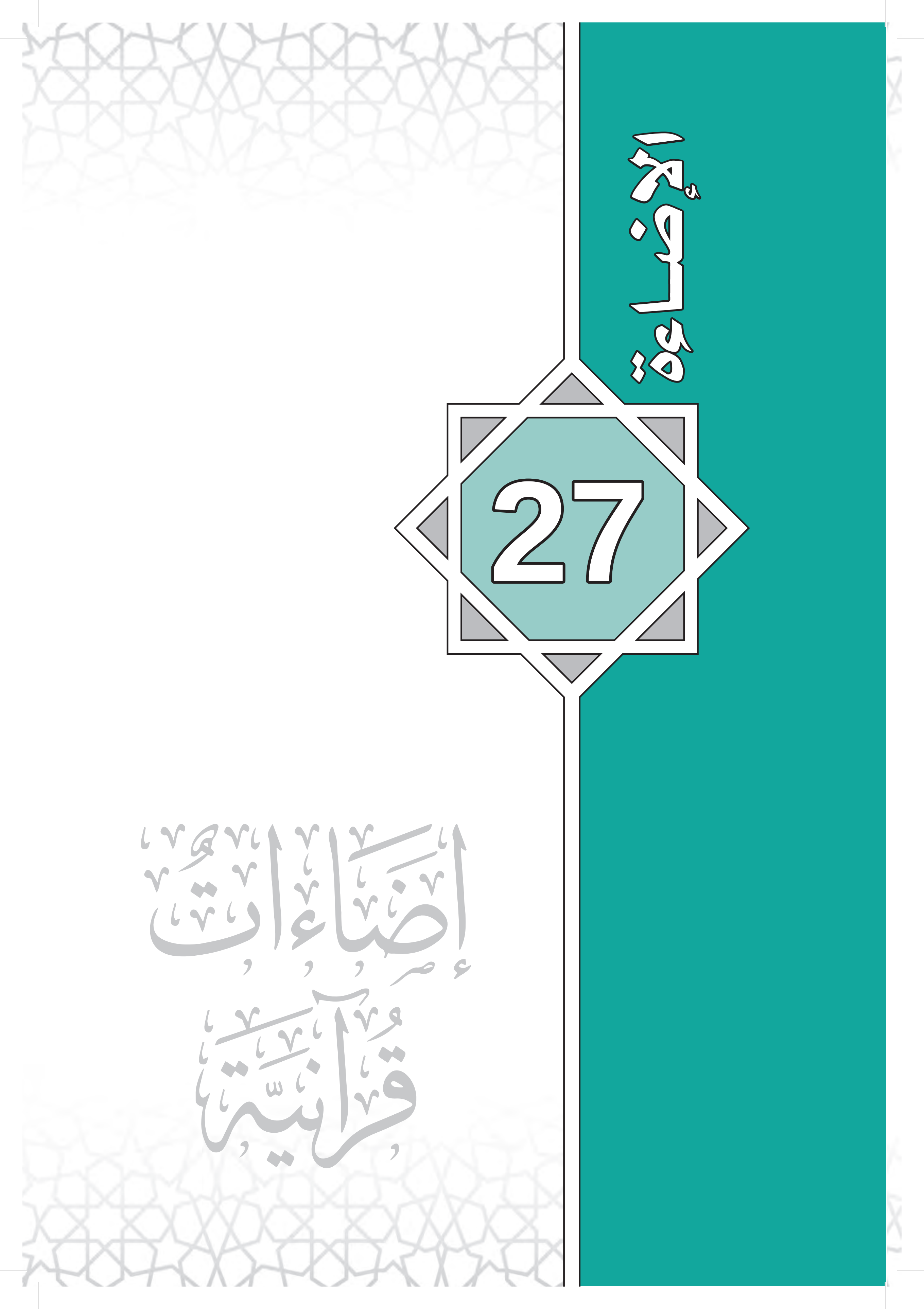
وقال الشيخ عبدالعزيز الطريفي في تغريدة له بتويتر:

إتمام الله لدينه لن يكون برضا الكفار وسماحة التقارب فقط بل لا بد من وجود الإكراه (**وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**)...

إنها مجرد أفواه تنفخ لإطفاء نور عظيم، ذهبت أنفاسهم، وما زاد ذاك النور إلا توهجًا..

وقيل: يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم بالنفخ بالأفواه كما تطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله، وهو دينه نور، ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فرموه بالسحر وانقطاع نسبته إلى الله.




إضاءة
27
إضاءات قرآنية

هل للرّسل عليهم الصلاة والسلام حق التشريع؟

لما كانت الفتوى بياناً لحكم الله عز وجل في الوقائع والأحداث، فقد حرّم سبحانه من التقول عليه والإفتاء بغير علم ولا بينة ولا برهان، وحذر من الافتراء عليه وجعل ذلك من أعظم المحرمات، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٣

وشدد جلّ وعلا من خطورة التحريم والتحليل وفق الأهواء، لا وفق الشرع، وعد ذلك نوعا من أنواع الشرك، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ يونس ٥٩

فكيف نوفّق بين الآيات السابقة وبين آية أخرى تبين أن الرسول ﷺ كان يحل الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عن الناس إصرهم؟ كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ الأعراف ١٥٧.

فكيف نوفق بين هذه الآية وما سبق؟

وهل للنبي محمد ﷺ بناء على ما تقدم أن يشرع للأمة من تلقاء نفسه؟

يجب أن نعلم ابتداءً أن الله عصم نبيه من الخطأ والزلل في التبليغ، وأخبر أنه لا ينطق عن الهوى وأمرنا بطاعته، فدّل ذلك على أن النبي محمد ﷺ لا يشرّع إلا ما يريده الله تعالى.

وقال شيخ الإسلام: لا نزاع بين المسلمين أن الرسول ﷺ معصوم فيما بلغه عن الله تعالى، فهو معصوم فيما شرعه للأمة بإجماع المسلمين، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: **(أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ)**[1]، ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله: الحديث إما وحي من الله صرف، وإما اجتهاد من الرسول ﷺ معتبر بوحي صحيح من كتاب أو سنة.

وعلى كلا التقديرين ليس في الحديث تناقض مع كتاب الله ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. فإنه عليه الصلاة والسلام يشرّع للأمة بوحي من المولى جل وعلا، ومن الأمثلة في تشريعه ﷺ مع كتاب الله: حينما بين سبحانه وتعالى المحرمات في النكاح فقال: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ النساء ﴿٢٣﴾ فأضاف إليه ﷺ فقال: **(لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)**[2].

فالقرآن ما جاء بهذا، ولكن جاء به ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ آل عمران ﴿٣١﴾.

فالله أعطاه حق التشريع، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الحشر﴿٧﴾، وسواء أتانا به من عند الله أو أتانا به من عنده.

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ النجم ﴿٣﴾.

وقال أبوجعفر تعليقاً على الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ يونس ﴿٥٩﴾

(١) رواه أبوداود (٤٦٠٤) والترمذي (٢٦٦٤) وإبن ماجه (١٢) وأحمد (١٣٠/ ٤) والحديث حسنهُ إبن حجر في هدايه الراوه (١٢٩/ ١)، وقال الألباني في (تحذير الساجد): صحيح.
(٢) رواه البخاري برقم (٤٨٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: (**أرأيتم**) أيها الناس (**ما أنـزل الله لكم من رزق**) يقول: ما خلق الله لكم من الرزق وما تتغذون به من الأطعمة (**فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا**) يقول: فحللتم بعض ذلك لأنفسكم، وحرمتم بعضه عليها، وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرِّمونه من حُروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم الله به فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ الأنعام ﴿١٣٦﴾

قل لهم: (**آللهُ أَذِنَ لَكُمْ**)؟ بأن تحرِّموا ما حرَّمتم منه (**أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ**) أي تقولون الباطل وتكذبون؟ جامع البيان في تفسير القرآن.

وقال القرطبي: وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال كالغنائم ومجالسة الحائض، ومؤاكلتها، فجاء النبي الأمي ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم. لأنه عليه الصلاة والسلام جاء بالتبشير والتخفيف، وبعث بالحنفية السمحة. ومن وصاياه محمد ﷺ: (**بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**) [(١)].

قال الإمام ابن كثير: وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم وأرشدهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾ البقرة ﴿٢٨٦﴾.

ونظير هذا قول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾ آل عمران ﴿٥٠﴾.

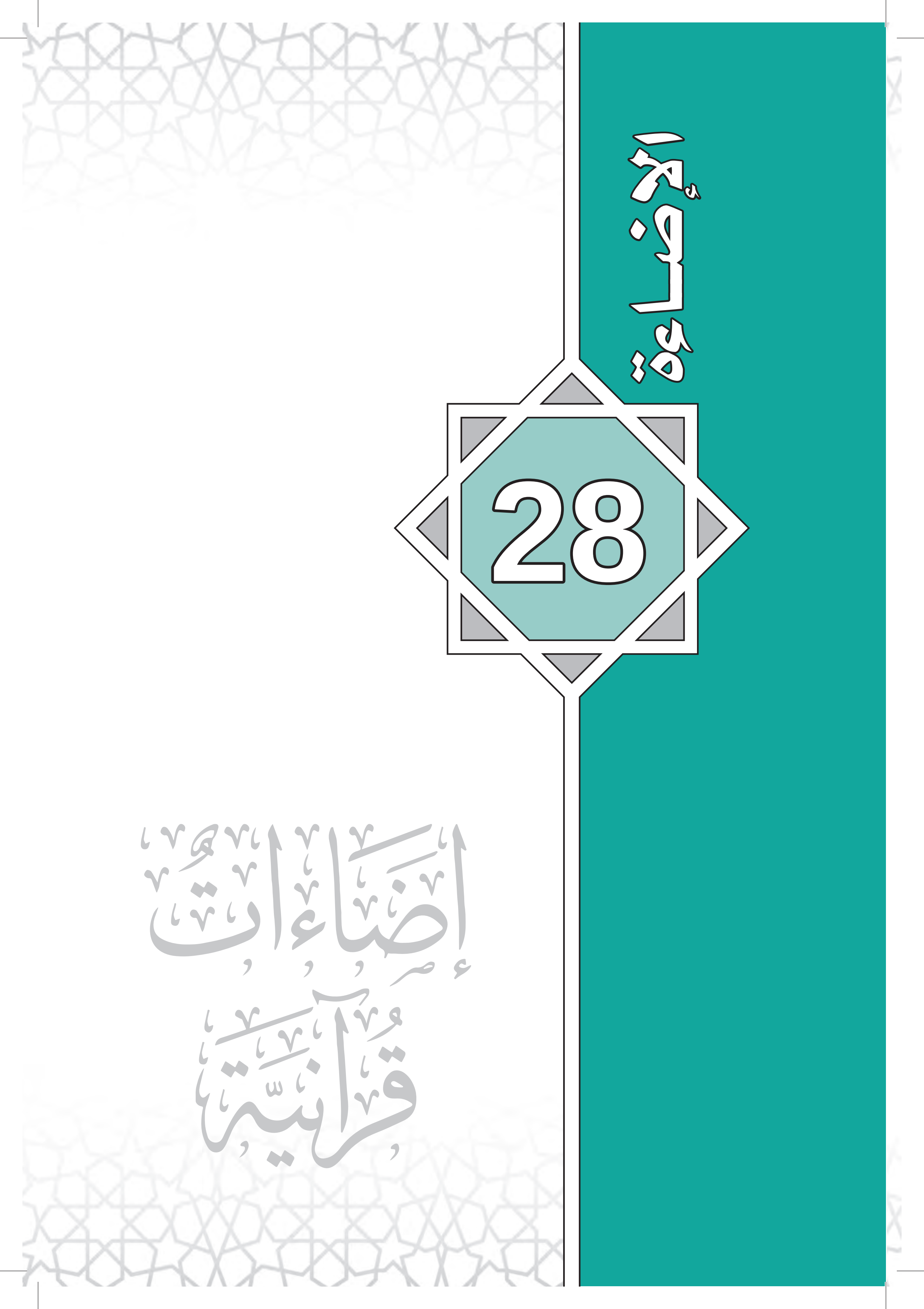
(١) أخرجه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤).

وقال الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله ولم يقل: كل المحرّم عليهم ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ...﴾ الأنعام ١٤٦

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ النساء ١٦٠.

فلما حرّمت عليهم هذه الطيبات بظلمهم وطغيانهم وبعث الله عيسى عليه السلام أحل لهم بعض ما حرّم عليهم.




إضاءة
28
إضاءات قرآنية

كيف عرفت الملائكة أن البشر سيفسدون في الأرض؟

قال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ﴿٣٠﴾.

كيف عرفت الملائكة أن البشر سيفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء، وهم لم يخلقوا بعد؟

فسؤال الملائكة المكرّمين ليس إعتراضاً منهم، فإنهم منزهون عن ذلك، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة.

كما جاء في تفسير ابن كثير قوله رحمه الله: وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك؛ يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟! فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي نصلي لك.

فأجابهم رب العزة: إني أعلم مالا تعلمون أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف، على المفاسد التي ذكرتموها، مالا تعلمون أنتم؛ فإني جاعل فيهم الأنبياء والرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم..) [(١)]

- انتهى كلامه -

(١) تفسير إبن كثير رحمه الله.

وقد أخبرنا الله تعالى في أكثر من موضع من كتابه العزيز أنه أعلم الملائكة بأنه سيخلق بشرا من طين، ثم أمرهم بالسجود له حين يتم خلقه كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ص ۝٧١ ۝٧٢.

ومعلوم أن خلق الملائكة كان سابقا على خلق آدم عليه السلام...

وقد اختلف أهل العلم في التعليق على استفسار الملائكة هذا على عدة أقوال:

الأول: أنهم علموا ذلك بإعلام الله تعالى لهم، وإن كان ذلك لم يذكر في السياق.

قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وابن قتيبة، كما في «**زاد المسير**» لابن الجوزي. وهو قول أكثر المفسرين، كما قاله ابن تيمية في «**مجموع الفتاوى**».

يقول ابن القيم رحمه الله: وفي هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيفسدون في الأرض، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون؟ والله تعالى يقول: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير.

قال الله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ «مفتاح دار السعادة».

الثاني: أنهم قاسوه على أحوال الجن، فقد سبقوا الإنسان في الأرض وكانوا يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فعلمت الملائكة أن البشر سيكونون على حال من سبقهم.

روي نحو هذا عن ابن عباس وأبي العالية ومقاتل [1].

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي.

الثالث: أنهم فهموا ذلك من الطبيعة البشرية، وهو الذي يبدو من اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «**منهاج السنة**»[1].

الرابع: أنهم فهموا من قوله تعالى (خليفة) أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم.

قاله القرطبي «**الجامع لأحكام القرآن**»[2].

والمعنى: أنه إذا كان هناك خليفة يحكم بين الناس في المظالم، فإنه يلزم من ذلك أن هؤلاء الناس تقع منهم المظالم...

(١) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام إبن تيمية.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي رحمه الله.


إضاءة
29
إضاءات قرآنية

هل حقًا يخشى الشيطان علينا من الفقر؟

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة ٢٦٨.

واقع الأمر أن الشيطان لا يخشى على العبد من الفقر، بل يتمناه له لأن الفقر يلهي العبد في مشاغل الحياة وفي الكدح، ولا يجد متسعًا للراحة والعبادة، ويجعله في تعب وأرق وقلق وانشغال في هموم الدنيا..

إذن: ما المقصود من قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؟!

مراد الشيطان الحقيقي والخفي هو التشكيك بالوعد الإلهي بأن الصدقة لا تنقص المال بل تزكيه وتنميه وتبارك فيه، كما قال تعالى: ﴿.. وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ ٣٩

فيوسوس للمسلم بالنقيض ويخوفه ويخيل إليه بأن الصدقة ستنقص من أمواله، وأن الإنفاق سيذهب بالمال ويفضي إلى سوء الحال، وستكابد الفقر وتحرم أهلك وأبناءك رغد العيش فيكونوا عالة على غيرهم، ولاينفك يحذره بأنه لا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يولده الزمن من الحاجات، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ البقرة ٢٦٥

قيل في معنى ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه يتثبت من النية إن كانت لله أمضاها أي الصدقة وقيل يتثبت في أي موضع يضع الصدقة، وقيل وهذا هو الشاهد المضي في الصدقة وعدم التردد بسبب تشكيك الشيطان له بأن هذا الفقير لا يستحق، أو أن مقدار الصدقة كثير عليه، أو يذكره بالديون التي عليه حتى يعدل عن الصدقة.

فالمسلم في هذه الحال يثبت على نيته وينفق ولا يخشى من ذي العرش إقلالاً، لأنه يثق بأنه ما نقص مال من صدقة، ويؤمن إيمانـاً مطلقاً بحديث المصطفى ﷺ كما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعط ممسكاً تلفاً**)[1].

وكان بعض السلف لما يأتيهم الذين يطلبون المال يقولون: يا مرحباً بمن ينقل أموالنا من دار إلى دار، فالمال الذي تدفعه يزيد، فهو ينتقل من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية.

يقول الأمام السعدي في تفسير هذه الآية ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحاً لكم، بل هذا غاية الغش[2].. وقال ابن كثير: معنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله.

وعن ابن عباس قال: اثنان من الشيطان، واثنان من الله: فالشيطان يعدكم الفقر ويقول: لا تنفق مالك، وأمسكه عليك، فإنك تحتاج إليه» والله يعدكم مغفرة منه[3].

وقال أبو جعفر: أيها الناس الشيطان يعدكم أن تفتقروا بالصدقة وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً يعني: ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقتكم، فيتفضّل عليكم من عطاياه ويسبغ عليكم في أرزاقكم[4].

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) تفسير السعدي للآية (٢٦٨) ص (١٠٣).
(٣) تفسير الطبري (٥٧١ / ٥).
(٤) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) (١ / ١٣).

وهذا ما فعله الشيطان بالمنافقين في غزوة «**الأحزاب**» حين زعزع ثقتهم بالله وبنصره وتأييده، وبث في قلوبهم الوهن والريبة والشك، بل والسخرية بوعد الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الأحزاب ﴿١٢﴾، أما المؤمنون الصادقون، فقد تجلت ثقتهم بالله في أروع صورها، وفي أحلك الظروف يوم زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك زادتهم المحنة ثقة ويقيناً.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الأحزاب ﴿٢٢﴾، وهم بذلك يتمثلون حديث النبي محمد ﷺ: (**ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها، إلا زاده الله بها عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**)[١].

• فائدة لطيفة:

تدرّج ربنا معنا في الحث على الصدقة، فبدأ بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الشورى ﴿٤٩﴾.

ثم ملكنّا الأموال وجعلها لنا وقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ المنافقون ﴿١٠﴾.

ثم رغبنا في النفقة وأنه سيخلفها لنا فقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ سبأ ﴿٣٩﴾. ثم وصف الصدقة بالقرض الواجب السداد!

فقال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ الحديد ﴿١١﴾. فالله مالك الملك، ملكّك، وأعطاك، ثم: يستقرضك!

وهذا من كرمه سبحانه وتعالى.

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥) وقال: حديث حسن صحيح، عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه.



إضاءة
30
إضاءات قرآنية

هل يجوز الربا إن لم يكن مضاعفًا؟

الجواب بديهي عند كل مسلم، لكن وقفتنا هنا مع كلمة (**أضعافًا مضاعفة**) التي وردت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ آل عمران ﴿١٣٠﴾، وهو ما أثار التساؤل عن حكم الربا إن لم يكن مضاعفاً؟!

كأنما الآية قيدت التحريم بشرط مضاعفة المال...!

حقيقة الأمر أن الآية إنما تصف واقعاً كان سائداً في ذاك الزمان وهو أكل أموال الناس بالباطل، وبالربا الفاحش واسترداد الدين بأضعاف مضاعفة من الأموال، مستغلين حاجة الفقراء، فحرمت هذا الربا الظالم الذي قد تتجاوز الفائدة فيه أصل الدين كما هو الحال اليوم في البنوك الربوية.

فقد كان الدائن في الجاهلية إذا حل الأجل طلبه من المدين، فيقول صاحبه: أَخرّ عني دينك وأزيدك على مالك بمبالغ كبيرة...

فذلك هو الربا المضاعف الذي نهاهم الله عز وجل عنه في إسلامهم.

حدثنا محمد بن سنان قال: حدثنا مؤمل قال: حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بني المغيرة في الجاهلية، فإذا حل الأجل، قالوا: نزيدكم وتؤخرون؟ فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ آل عمران ﴿١٣٠﴾

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد إذ هداكم له، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم... [١]

(١) تفسير الطبري للآية (١٣٠) في سورة آل عمران.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور ٣٣

ونتساءل هنا: وإن لم يردن تحصناً؟ وإن لم نكرههن؟ فلا ضير في ارتكاب الزنا؟ حاشا لله أن يكون هذا هو المقصد والمراد، وإنما هو كما أشرنا وصف لحال وواقع في ذاك الزمان كان منتشراً بين الناس، فجاء الاسلام لينهي عن فعله، وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه الإمام مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ يَقُولُ لِجَارِيَةٍ لَهُ: **(اذْهَبِي فَا بْغِينَا شَيْئًا)**.. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ...﴾[1].

وقال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام، نهى الله المسلمين عن ذلك[2].

قال الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره: زوجوا الصالحين من عبادكم وإمائكم، ولا تكرهوا إماءكم على البغاء، وهو الزنا، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ يقول: إن أردن تعففا عن الزنا، ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول: لتلتمسوا بإكراهكم إياهن على الزنا عرض الحياة[3].

لذا، فإن الآية التي تتحدث عن الربا، والأخرى التي تتحدث عن الزنا إنما تعرض واقعاً في الجاهلية قبل أن تبين الحكم الشرعي، كما قال جمع من المفسرين والفقهاء بأن المراد من الآية الكريمة هو بيان الواقع لا اختصاص التحريم بحالة المضاعفة.

(١) رواه مسلم برقم (٦٤٠)، عن أبي كريب، عن أبي معاوية.
(٢) تفسير إبن كثير.
(٣) تفسير الطبري.

فقال ابن عطية في المحرر الوجيز: وقوله (**مضاعفة**) إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شناعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة، وقد حرم الله جميع أنواع الربا قلَّ أو كثر، وأيضا فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجوه مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه [١].

وقال الشوكاني في فتح القدير: وقوله ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حلّ الأجل زادوا في المال مقدارا يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المرابي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء. وأضعافًا حال، ومضاعفة نعت له، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عامـًا بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ، وهكذا قال الألوسي في روح المعاني وغيره من العلماء [٢].

قال ابن القيم في حاشية سنن أبي داود: القائلين بالمفهوم إنما قالوا به إذا لم يكن هناك سبب اقتضى التخصيص بالمنطوق فلو ظهر سبب يقتضي التخصيص به لم يكن المفهوم معتبرا كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فذكر هذا القيد لحاجة المخاطبين إليه إذ هو الحامل لهم على قتلهم لا لاختصاص الحكم به، كقوله تعالى:

﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ونظائره كثيرة [٣].

(١) تفسير إبن عطية في المحرر الوجيز.
(٢) تفسير الشوكاني في فتح القدير.
(٣) حاشية سنن أبي داود.


إضاءة
31
إضاءات قرآنية

ما معنى (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)؟!

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ التحريم ﴿١٠﴾.

كيف نوفق بين هذه الآية، وبيّن قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مبرءون مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ النور ﴿٢٦﴾.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور ﴿٣﴾.

لدى تتبّع أقوال العلماء وأئمة التفسير نجد الجواب الشافي، والرد الصارم على الذين في قلوبهم مرض وزيغ، ويثيرون الشبهات ابتغاء الفتنة.

فقد ذكر جمع من العلماء أن المراد بكلمة (الخيانة) التي وردت في الآية ونسبت لزوجتي لوط ونوح عليهما السلام إنما هي خيانة في الإيمان، كما جاء ذلك في تفسير ابن كثير رحمه الله حيث قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان لم يوافقا أزواجهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في الرسالة، فلم يُجْدِ ذلك كلَّه شيئًا، ولا دفع عنهما محذوراً؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ أي: لكفرهما (وَقِيلَ) أي للمرأتين: ﴿ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وليس المراد ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإنَّ نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء، قال سفيان الثوري، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قتة: سمعت ابن عباس يقول في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط: فإنها كانت تدل قومها على أضيافه.

وقال العوفي، عن ابن عباس قال: كانت خيانتهما أنهما كانتا على عورتيهما، فكانت امرأة نوح عليه السلام تطّلع على سر نوح عليه السلام، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا استضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء.

وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم (وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين). [1]

أما قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فقد اختلف المفسرون في معناها على أقوال متقاربة، لا يناقض بعضها بعضاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الكلمات الخبيثة للخبيثين، ومن كلام بعضهم: الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ إبراهيم ﴿٢٤﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ إبراهيم ﴿٢٦﴾. وقال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر ﴿١٠﴾. والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل، فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها[2].

وقال الطبري رحمه الله بعد أن استعرض جملة من الآراء:

(وأولى هذه الأقوال في تأويل الآية: قول من قال: عَنى[3] بالخبيثات: الخبيثات من القول، وذلك قبيحه وسيئه، للخبيثين من الرجال والنساء، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول هم بها أولى لأنهم أهلها والطيبات من القول،

(١) تفسير إبن كثير - الآية (١٠) سورة التحريم.
(٢) مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١٤/ ٤٣٤).
(٣) عَنى بمعنى قَصَدَ.

وذلك حسنه وجميله، للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول لأنهم أهلها وأحقّ بها). [1]

ولأن الآيات جاءت بتوبيخ الله للقائلين بالإفك في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خصهم به على إفكهم، وكذا الخبث والطيب من الأشخاص في النكاح: فمعنى الآية: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: كان رسول الله ﷺ طيِّبًا، وكان أولى بأن يكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب.

قال القرطبي رحمه الله: وقيل: إن هذه الآية مبنية على قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ النور ٣، فالخبيثات: الزواني، والطيبات: العفائف، وكذا الطيبون، والطيبات.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، فما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعًا ولا قَدَراً؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾

أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة النبيّ ﷺ في الجنة [2].

(١) تفسير الطبري رحمه الله، سورة (النور) الآية (٢٦).
(٢) تفسير القرطبي رحمه الله.

وفي الآية بيان براءة عائشة رضي الله عنها، حيث زكاها الله تعالى بوصفها بالطيبّة لأنها كانت تحت الطيّب، وهو النبي ﷺ، ولم يكن الله تعالى ليختارها زوجة لنبيه ﷺ لو كانت خبيثة! ومن هنا كان الطاعن في عرض عائشة طاعناً في النبي ﷺ، ومستحقّاً للحكم بالردة والقتل.

• فـائـدة:

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ النور ٢

لم عبّر سبحانه عن العقاب بقوله: ﴿فاجلدوا﴾ ولم يقل: ﴿فَاضْرِبُوا﴾؟

للإشارة إلى أن الغرض من الحد الإيلام بحيث يصل ألمه إلى الجلد، لعظم الجرم ردعـاً له وزجرا [1].

ولزيادة الفائدة، نورد هنا مختصر جواب اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء في المملكة العربية السعودية حول هذ ه المسألة.

فأجابت اللجنة بقولها:

أولاً: قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه الآية ذُكرت بعد الآيات التي نزلت في قصة **(الإفك)** تأكيداً لبراءة عائشة رضي الله عنها مما رماها به عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين، زوراً وبهتانـاً، وبيانـاً لنزاهتها، وعفتها في نفسها، ومن جهة صلتها برسول الله ﷺ.

• وللآية معنيان:

أولاً: أن الكلمات الخبيثات والأعمال السيئات أولى بها الناس الخبيثون، والناس الخبثاء أولى وأحق بالكلمات الخبيثات والأعمال الفاحشة، والكلمات

(١) آيات الأحكام للصابوني (٢/ ١٥).

الطيبات والأعمال الطاهرة أولى وأحق بها الناس الطيبون ذوو النفوس الأبيّة والأخلاق الكريمة السامية، والطيبون أولى بالكلمات والأعمال الصالحات.

ثانيًا: أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، والرجال الخبيثون أولى بالنساء الخبيثات، والنساء الطيبات الطاهرات العفيفات أولى بالرجال الطاهرين والعكس صحيح فالرجال الطاهرين الأعفاء أولى بالنساء الطاهرات العفيفات، والآية على كلا المعنيين دالة على المقصود منها، وهو نزاهة عائشة رضي الله عنها عمّا رماها به رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول من الفاحشة ومن تبعه ممن انخدع ببهتانه واغتر بزخرف قوله.

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآيتين من سورة التحريم، ختم سبحانه سورة التحريم بمثلَين: مثل ضربه للذين كفروا بامرأتين كافرتين امرأة نوح وامرأة لوط، ومثل ضربه للذين آمنوا بامرأتين صالحتين بآسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران؛ إيذانًا بأن الله حكمٌ عدلٌ لا محاباة عنده، بل كل نفس عنده بما كسبت رهينة، فبيَّن سبحانه أن امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانتا كافرتين، وكانتا تحت رسولَيْن كريميْن من رسل الله، وكانت امرأة نوح تخونه بدلالة الكفار على مَن آمن بزوجها، وكانت امرأة لوط تدل الكفار على ضيوفه، إيذاء وخيانة لهما، وصدّاً للنَّاس عن اتباعهما، فلم ينفعهما صلاح زوجيهما نوح ولوط، ولم يدفعا عنهما من بأس الله شيئًا، وقيل لهاتين المرأتين: ادخلا النار مع الداخلين، جزاءً وفاقًا بكفرهما وخيانتهما؛ بدلالة امرأة نوح على من آمن به، ودلالة امرأة لوط على ضيوفه، لا بالزنى، فإن الله سبحانه لا يرضى لنبي من أنبيائه زوجة زانية [١].

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢٧٠/٣ - ٢٧٦) عبدالله بن غديان - عضو.
عبد الرزاق عفيفي - نائب رئيس اللجنة.
الشيخ عبد العزيز بن باز - الرئيس.


إضاءة
32
إضاءات قرآنية

هل الإنسان مخيّر بين الكفر والإيمان؟

كيف نوفّق بين آيات من القرآن الكريم تخيّر الأنسان بين الكفر والإيمان وآيات أخرى تتوعّد المشرك بالقتل في الدنيا، والعذاب في الآخرة؟

لنتأمل الآيات التي يبدو في ظاهرها أن الإنسان غير ملزم باعتناق الإسلام يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾ الكهف ﴿٢٩﴾ وقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يونس ﴿٩٩﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة ﴿٢٥٦﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد ﴿١٠﴾.

بل إن الآية الواردة في مطلع سورة التوبة تضمّنت توجيهاً ربانياً بالإحسان إلى المشرك ومعاملته بالرفق واللين ومنحه الجوار حتى يسمع كلام الله، وهي قوله تعالى:﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة ﴿٦﴾، وأكثر من ذلك أن يمنح الرعاية والحماية حتى يبلغ مأمنه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ مما يدّل على أن الإنسان مخيّر بيّن الكفر والإيمان.

إذا كان الأمر كذلك، إذن كيف نوفق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾ التوبة ﴿٥﴾.

حيث نصَت الآية الكريمة على قتل المشركين أنى وجدوا، في الحرم أو في غير الحرم وأسرهم ومنعهم من التصرف في بلاد الإسلام ومن دخول مكة المكرمة.

عند التدّبر في سياق الآيات تتضح جوانب الصورة بشكل متكامل وهي أن الإنسان ليس مخيراَ بين الكفر والإيمان كما يظن البعض، بل هو مطالب شرعاً بالدخول في دين الله، فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾

لا يعني (التخيير) وإنما هي مقدمة وتمهيد للوعيد الشديد الذي ينتظر من يختار الكفر على الإيمان، بدليل تكملة الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الكهف ﴿٢٩﴾.

ومن تمام العدل الإلهي أن يُعطى الإنسان حق الاختيار، وعليه أن يتحمل نتيجة القرار!! فليس له حجة يوم القيامة أنه كان مرغماً على الكفر، مكرهاً على المعصية.

روي عن ابن عباس في تفسير قوله:﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ يقول: وليس هذا بإطلاق من الله الكفر لمن شاء، والإيمان لمن أراد، وإنما هو تهديد ووعيد، من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر، وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [١].

وكذا قال الواحدي في كتابه «**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**»: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ التخيير ُهنا معناه: التَّهديد ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين عبدوا غير الله **تعالى** ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وهو دخان يحيط بالكفَّار يوم القيامة [٢].

وقال البغوي في كتابه «**معالم التنزيل**»: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا على طريق التهديد والوعيد؛ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ فصلت ﴿٤٠﴾، فإن

(١) تفسير الطبري رحمه الله.
(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي.

شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، فإن كفرتم فقد أعدَّ لكم ربُّكم نارًا أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم فلكم ما وصف الله عز وجل لأهل طاعته[1].

لذا، جاء قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾ التوبة ٥ تأكيداً لهذه الحقيقة، وبيان السبب في نبذ العهد الذي مع المشركين، حين نكثوا أيمانهم وطعنوا في دين المسلمين، وبدأوا بقتالهم.

هنا أمر الله بنبذ عهدهم وإعطائهم فرصة السياحة في الأرض ليخرجوا بلا قتل وقتال، وبعد انتهاء المدة أمر الله بأمور - إما قتل هؤلاء المشركين أو أسرهم **(خذوهم)** أو حصارهم **(احصروهم)** فلم يكن الخيار القتل فقط!

أما من استجارهم من المشركين ليسمع كلام الله، فيعطى الجوار والأمان حتى يسمع كلام الله، فإن لم يؤمن يبلغ مأمنه، ولا يقتل مع أنه مشرك!

لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة ٦، هذه الآيات جاءت قبل نزول آية الجزية، وفيها إقرار للكافر والمشرك على دينه وعدم قتاله إذا دفع الجزية.

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير الآية: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾ أي: فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم عليكم قتال المشركين فيها، فاقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه من حل وحرم ؛ لأن الحالة بينكم وبينهم عادت حالة حرب كما كانت، وإنما كان تأمينهم مدة أربعة أشهر منحة منكم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد أي: وافعلوا بهم كل ما ترونه موافقًا للمصلحة من تدابير القتال وشؤون الحرب المعهودة، وأولها: أخذهم أسارى، فكانوا يعبرون عن الأسر بالأخذ ويسمون الأسير

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢٨٧).

(أخيذا) والأخذ أعم من الأسر، فإن معنى الثاني الشد بالأسار كما تقدم في سورة الأنفال، فالأسير في أصل اللغة هو الأخيذ الذي يشد. وقد أبيح هنا الأسر الذي حظر بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الأنفال ﴿٦٧﴾.

لحصول شرطه وهو الإثخان الذي هو عبارة عن الغلب والقوة والسيادة، فمن يسمي مثل هذا نسخًا فله أن يقول به هنا، والصواب أنه من المقيد بالشرط أو الوقت أو الأذان، والحصر وهو حبس العدو حيث يعتصمون من معقل وحصن، بأن يحاط بهم ويمنعوا من الخروج والانفلات إذا كان في مهاجمتهم فيه خسارة كبيرة، فاحصروهم إلى أن يسلموا، وينزلوا على حكمكم بشرط ترضونه أو بغير شرط [(١)].

وهل يقتل الكافر لمجرد بقائه على الكفر...؟

الجواب: إن الأصل هو التعايش بسلام مع الناس بصرف النظر عن مللهم ونحلهم ودينهم، وعدم إكراههم على اعتناق الإسلام، وكانت جيوش المسلمين تجوب الأرض شرقًا وغربًا لنشر الدين، وتخير أهل القرى والمدن بين ثلاثة خيارات: إما اعتناق الإسلام عن قناعة لا عن إجبار، وإما البقاء على دينهم على أن يعطوا الجزية للمسلمين ليكونوا في ذمتهم، وأمانهم وعهدهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين من حق الدفاع والذود عن الأعراض والأموال والأهل، فإن أبوا هذين الخيارين فليس لهم إلا القتال، لأن الإسلام يطلب منهم إفساح الطريق لمواصلة مسيرته دون عراقيل أو قيود، فإذا رفض أهل الكفر الإسلام أو دفع الجزية وناصبوا المسلمين العداء، عندها تكون المواجهة والقتال، كما جاء ذلك في مواضع كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿... فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة ﴿١٩١﴾.

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة ٣٦.

وكذا قوله جل وعلا: ﴿... فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ النساء ٩١.

فهو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم ولتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها، قصاصاً.

• فائدة لغوية:

ما الفرق بين (ثقفتموهم) و(وجدتموهم)؟

قال تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمُ﴾ النساء ٩١.

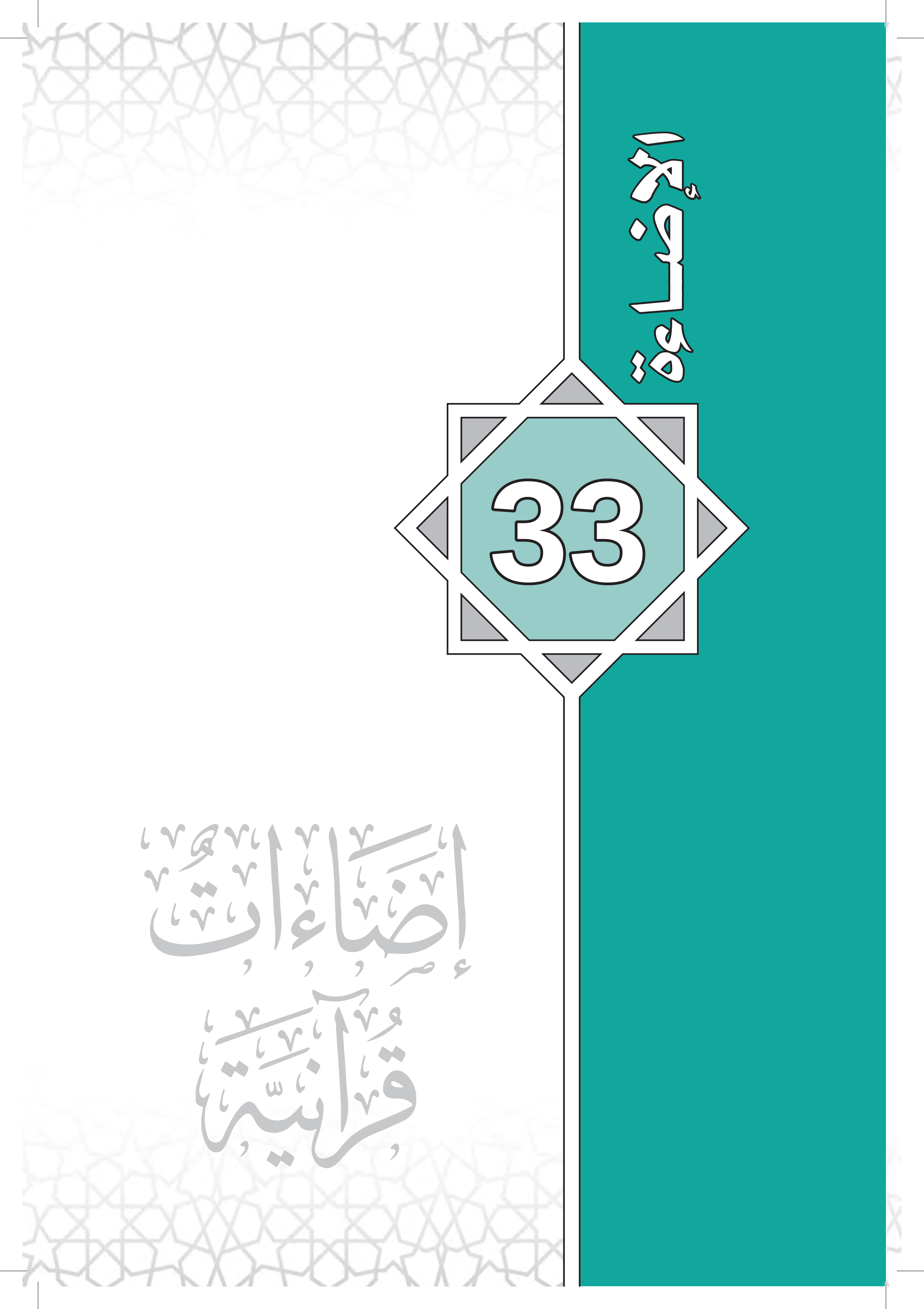
وقال في موضع آخر: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمُ﴾ النساء ٨٩.

يقول الدكتور فاضل السامرائي: كلمة (ثقف) تستعمل غالباً في حالة الحرب، كما في مطلع الآية السابقة: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

أما كلمة (وجدتموهم) فهي عامة وليست متعلقة بالحرب فقط، كما في الآية التي قبلها: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ النساء ٩.

فهذه ليس فيها حرب، والشاهد أن كلمة ثقفتموهم أي ظفرتم بهم في الحرب، أما وجدتموهم فهي عامة في السَلَم أي الصلح والحرب، والله أعلم [١].

(١) الموقع الإلكتروني للدكتور فاضل صالح السامرائي.


إضاءة
33
إضاءات قرآنية

إثم القاتل معلوم، فما هو إثم المقتول...؟!

قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة ﴿٢٩﴾، الآية توحي بسؤال لكل متدّبر: إذا كان القاتل يأثم بجريمته ويحاسب عليها، فكيف يأثم المقتول الذي لم يرتكب جريمة؟ وهو المجني عليه، وليس الجاني؟

لفهم هذه المسألة لا بد من تتبع سياق قصة قابيل وهابيل كما جاءت في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ المائدة ﴿٢٧﴾- ﴿٣١﴾.

ليس المقام هنا لسرد القصة بتفاصيلها، ولكن للوقوف على الحوار الذي تم بين الأخوين وانتهى بقتل أحدهما الآخر.

لما اختلف أبناء آدم على الزواج وقربا قرباناً، تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فغضب وعزم على قتل أخيه، وقال: لأقتلنك، فقال الآخر: إنما يتقبل الله من المتقين...

لم تطاوعه نفسه على الرد بالمثل، فقد كان تقياً ورعاً يخشى الله...

فرد على التهديد بكلمات مفعمة بالحلم والرحمة:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة ﴿٢٨﴾.

لم يقابل السيئة بالسيئة، بل أن دفع السيئة بالتي هي أحسن، ولم يقبل أن يقاتل أخيه، ويشترك معه بالنية في القتل فيبوء بنفس الذنب والإثم، فآثر أن يكون هو المقتول لا القاتل، حتى ينتقل إثمه (لو همّ بقتله) لأخيه.

وهذا ما عناه في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة ﴿٢٩﴾.

أي: إني لا أريد مقاتلتك، وإن كنت أشد منك وأقوى، إذ قد عزمت، أن تبوء بإثمي وإثمك، أي تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة.

قال عبد الله بن عمرو: (وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرّج أن يبسط إليه يده) قاله مجاهد، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي، وابن جرير، وغير واحد، وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل[1].

ويقول البغوي في تفسيره «**معالم التنزيل**»: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أَيْ: بِإِثْمِ قَتْلِي إِلَى إِثْمِكَ، أَيْ: إِثْمِ مَعَاصِيكَ الَّتِي عَمِلْتَ مِنْ قَبْلُ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ[2].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى: «وهذا الكلام مُتضمِّن موعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: تتحمَّل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة ﴿٩٢﴾[3].

(١) البداية والنهاية لإبن كثير (١/ ٧).
(٢) معالم التنزيل للبغوي.
(٣) تفسير إبن كثير.

وقال ابن عباس: «خوَّفه النارَ، فلم ينتهِ، ولم ينزجر»[١].

وهناك أقوال أخرى منها ما ذهب إليه الإمام البيضاوي في تفسيره؛ حيث قال: (ولعله لم يُرِد معصية أخيه وشقاوته، بل قصده بهذا الكلام إلى أن ذلك إن كان لا محالة واقعًا، فأريد أن يكون لك لا لي، ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادة عقاب العاصي جائزة)[٢].

ولهذا ثبت في (الصحيحين) عن رسول الله ﷺ قال: **(إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. فقيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه)**[٣].

وسبب دخول المقتول النار هو عزمه وإصراره على قتل صاحبه ولكنه عجز عنه، ولذلك أجاب النبي ﷺ عن هذا الإشكال في آخر الحديث فقال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه، فليس عنده نية المعصية فقط.

قال النووي: (من نوى المعصية، وأصر على فعلها ولم يمنعه منها إلا العجز يكون آثمًا، وإن لم يفعلها ولم يتكلم بها)[٤].

وقال الحافظ في الفتح: إنما تكتب الحسنة لمن همّ بالسيئة فلم يعملها إذا قصد بتركها وجه الله تعالى، وحينئذ يرجع إلى العمل وهو فعل القلب[٥].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله قال: (إنها ستكون فتنة، القاعد

---

(١) عمدة التفاسير.
(٢) تفسير البيضاوي.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي.
(٤) الموقع الإلكتروني - إسلام ويب.
(٥) فتح الباريء لإبن حجر.

فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي قال: (أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني، قال: كن كابن آدم) [١].

ورواه ابن مردويه، عن حذيفة بن اليمان، مرفوعًا.

• هنا قد يقول قائل:

لماذا لم يدفع عن نفسه؟ أليس الدفع عن النفس واجبًا؟ أو على الأقل ليس بمحرم؟ فلماذا لم يدافع عن نفسه؟ ولماذا قال إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ؟

• قيل في ذلك عدة أقوال:

أولاً: أنه لم ير أخاه يهم بقتله، بل سمع مجرد تهديد (**لَأَقْتُلَنَّكَ**) ولم يواجهه مباشرة وجهًا لوجه، وأنه قتله وهو نائم بصخرة شدخ بها رأسه.

ثانيًا: أن قول الله تعالى: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ لا أبسط يدي إليك بغرض قتلك، وإنما أبسط يدي إليك للدفع، ولذلك قال العلماء: إن الشخص إذا هوجم من قبل إنسان يريد قتله فإنه يجب أن يدفع بالأيسر، وليس بقصد القتل، بل يجب أن يقصد الدفع، ثم إذا لم يندفع إلا بالقتل جاز القتل، فإذا هجم عليك شخص يريد قتلك فأنت تحاول أن تنزع منه سلاحه مثلاً، أو تبطحه أرضًا، وتربطه مثلاً، تتغلب عليه دون أن تقتله، وإذا لم يكن إلا بجرحه جرح، وإذا لم يندفع إلا بالقتل جاز قتله، ولا دية له.

وقال بعضهم: إن أراد أن يستسلم جاز له ذلك، وهكذا فعل عثمان رضي الله عنه، استدلوا بفعل عثمان أنه في قتال الفتنة يجوز للمسلم أن يستسلم لقاتله ولا يدافع.

---

(١) رواه أحمد وأبوداود والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص.

واستدلوا بقول النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة: (**ألقي كمك على وجهك، وكن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل**) [(١)].

(إذا وقع قتال فتنة بين المسلمين يكف المسلم عن القتل، ولو قتله الآخر؛ حتى لا تمتد الفتنة، ولا تتشعب، ولا يكون في مزيد من إراقة الدماء قالوا: يفعل كفعل عثمان، ويستسلم لأمر الله، أنظر لو أن عثمان دافع وطلب من الصحابة أن يدافعوا لعظم القتل في الحاضرين، لكن فدى عثمان الأمة بدمه، واستسلم للقتل، ونهى المدافعين عن الدفاع عنه) [(٢)].

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في إرواء الغليل.
(٢) الموقع الرسمي للشيخ / محمد صالح المنجد.


إضاءة
34
إضاءات قرآنية

آية تمتدح من يستأذن، وأخرى تذم من يستأذن؟!!

في سورة (**التوبة**) وصف سبحانه من يستأذن وقت الجهاد بأنه (ليس مؤمنًا)، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة ﴿٤٤﴾- ﴿٤٥﴾.

وفي سورة النور يصف عز وجل من يستأذن بأنه (**مؤمنًا**) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور ﴿٦٢﴾.

فكيف نوفق بين هاتين الآيتين؟!!

يرى جماعة من أهل العلم أن الآية التي في سورة «**التوبة**» منسوخة بالآية التي ذكرت في سورة (**النور**)، وممن قال بالنسخ ابن عباس وعكرمة والحسن البصري، فقد روى أبو داود عن ابن عباس قوله عن هذه الآية: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ التوبة ﴿٤٤﴾. نسختها التي الآية في سورة (**النور**) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكذا قال عكرمة والحسن البصري عن الآية: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ نسختهما الآية التي في (**النور**): ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور ﴿٦٢﴾.

وعلى العموم، فإن آية سورة التوبة ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ تتحدث عن المنافقين كما قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ إنما يستأذنك، يا محمد، في التخلف وترك الجهاد معك، من غير عذر بيِّن، الذين لا يصدقون بالله، ولا يقرّون بتوحيده وارتابت قلوبهم، يقول: وشكَّت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يقول: في شكهم متحيِّرون، وفي ظلمة الحيرة متردِّدون، لا يعرفون حقًّا من باطل، وهذه هي صفة المنافقين تفسير الطبري ـ

أما الآية في سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْت مِنْهُمْ﴾ فهي تتحدث عن المؤمنين الصادقين في الاستئذان لعذر حقيقي لا للتهرب والتخاذل عن الجهاد، كما جاء في تفسير الطبري: يَقُول تَعَالَى ذِكْره: فإذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لبعض شأنهم، يعني: لبعض حاجاتهم التي تعرض لهم، فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها [(١)].

وقال ابن عاشور في كتابه «**تفسير التحرير والتنوير**»:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد ببيان الذين شأنهم الاستئذان في هذا الشأن، وأنّهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في باطن أمرهم لأنّ انتفاء إيمانهم ينفي رجاءهم في ثواب الجهاد، فلذلك لا يُعرضون أنفسهم له، والمراد الارتياب في ظهور أمر النبي ﷺ فكانوا

(١) تفسير الطبري رحمه الله.

ذوي وجهين معه فأظهروا الإسلام لئلا يفوتهم ما يحصل للمسلمين من العز والنفع، على تقدير ظهور أمر الإسلام، وأبطنوا الكفر حفاظًا على دينهم الفاسد وعلى صلتهم بأهل ملتهم، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النساء ﴿١٤١﴾.

ولعل أعظم ارتيابهم كان عقب غزوة تبوك لأنهم ما كانوا يرون أن المسلمين سيغلبون الروم.

وجاء في قوله: ﴿لا يؤمنون﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نفي إيمانهم، وفي ﴿وارتابت قلوبهم﴾ بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم، وفرع قوله: فهم لريبهم، وترددهم لم يصارحوا النبي محمد ﷺ بالعصيان لاستنفاره، ولم يمتثلوا له فسلكوا مسلكًا يصلح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القعود، فالاستئذان بسبب التردد، والتردد بسبب الارتياب لذا قال تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة ﴿٤٥﴾.

وحقيقة التردد ذهاب ورجوع متكرر إلى مكان واحد، وهو هنا تمثيل لحال المتحير بين الفعل وعدمه بحال الماشي والراجع.

وقريب منه قولهم: يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فهم لم يعزموا على الخروج إلى الغزو. وفي هذه الآية تصريح للمنافقين بأنهم كافرون، وأن الله أطلع رسوله محمد ﷺ والمؤمنين على كفرهم لأن أمر استئذانهم في التخلف قد عرفه الناس.



إضاءة
35
إضاءات قرآنية

لماذا اعتبر المنافقون أنهم كاذبون رغم أنهم شهدوا أنه رسول الله؟

جاء في مطلع سورة (**المنافقون**) قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ المنافقون ①.

فأين الكذب في قولهم (نشهد إنك لرسول الله)؟!!

عند مراجعة كتب التفسير تجد إجماعاً على أن التكذيب ليس على القول الظاهر، ولكن على النية الباطلة! والتي تظهر خلاف ما تبطن.فقد كشف ربنا جل وعلا حقيقة هذه الشهادة المزيفة من المنافقين والتي لا تعبر عن قناعة ولا إيمان، بل كانت غطاءً وتقية كشفها المولى عز وجل بقوله: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. فهم أضمروا غير ما أظهروا، في هذا دلالة على أن حقيقة الإيمان بالقلب لا باللسان، فإن من أخبر عن شيء واعتقد بخلافه فهو كاذب، وسماهم الله كاذبين لأن قولهم يخالف اعتقادهم، فهم كاذبون في تلك الشهادة، وكان بعض أهل العربية يقول في قوله: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ إنما كذب ضميرهم لأنهم أضمروا النفاق، فكما لم يقبل إيمانهم، وقد أظهروه، فكذلك جعلهم كاذبين، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا.

يفسر هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ...﴾ المائدة ㊶

فهو نطق اللسان، لا إيمان القلب! وقالوا ذلك استهزاءً لاعن قناعة وإيمان.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يا محمد ﴿قَالُوا﴾ بألسنتهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ قال المنافقون ذلك أو لم يقولوا: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ يقول: والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد إنك لرسول الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك.

ولسيد قطب رحمه الله في (الظلال) تعليق لطيف نورده هنا:

كان المنافقون يجيئون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق، إنما يقولونها للتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين، فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها، ويداروا أنفسهم بقولها. ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾..﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ والتعبير فيه من الدقة والاحتياط ما يثير الانتباه، فالله يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين، ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة وليس هذا هو المقصود، إنما المقصود تكذيب إقرارهم، فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها خالصي الضمير...!

فتزييف الحقائق سمة المنافقين في كل زمان ومكان، ومن ذلك بناؤهم مسجد (الضرار) الذي كان في ظاهره منبراً للعبادة، وفي باطنه وكراً للمؤامرات والدسائس، فكشف الله حقيقته ونهى عن الصلاة فيه [(١)].

(١) تفسير الظلال لسيد قطب.





إضاءة
36
إضاءات قرآنية

لماذا انتهت آية الليل بجملة (أفلا تسمعون) وآية النهار بجملة (أفلا تبصرون)؟

امتنَّ الله تعالى على البشرية، وعلى كل الخلائق بآية الليل وآية النهار.

الأولى فيها السكون والهدوء، وينعم فيها الإنسان بالسكينة بعد الضوضاء، وبالراحة بعد التعب، وبالسبات العميق بعد الإرهاق، ليجدّد طاقته ليوم جديد، والثانية فيها معاشه وحياته، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ القصص ﴿٧٣﴾

ومن بديع الوصف القرآني لتقلب الليل والنهار قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ كأن الصبح من وطأة ظلمة الليل قد أُرهق بالظلمة، ثم أخذ يتنفس، كأن أنفاسه كانت مخمودة.

إلا أن المتأمل في سورة القصص، يجد أن الآيات التي ذكرت الليل انتهت بكلمة (أَفلا تَسْمَعُونَ) وذلك في قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ القصص ﴿٧١﴾.

والآية التي ذكرت النهار انتهت بكلمة (**أَفَلا تُبْصِرُونَ**):

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ القصص ﴿٧٢﴾.

فما الســـر...؟!

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله في إحدى دروس تفسير القرآن: أن أداة الإدراك بالليل السمع أكثر من البصر، فناسب ذلك أن يقول:

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وأداة الإدراك بالنهار البصر أكثر من السمع فناسب ذلك كلمة ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾... وهذا يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن، فلكلٍّ معنىً يناسبه، لأن العين لا عملَ لها في الليل إنما للأذن، فأنت بالليل تسمع دون أنْ ترى، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء، أما في النهار وفي وجود الضوء، فالعمل للعين حيث تبصر، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه.

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: وفي بيان الحكمة في ختم الآية الأولى بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ والثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إن الحديث عن الليل يناسبه ختم الآية بقوله ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن حاسة البصر تضعف فيه، وتبقى حاسة السمع أكثر فاعلية، فكان ختم الآية بالدعوة إلى الاعتبار من خلال السماع أنسب من غيرها من أدوات الاعتبار.

وأما حين تحدثت الآية الثانية عن نعمة (**النهار**)، ناسب أن تختم بالدعوة إلى التبصر في نعمة الله عزّ وجل، فالنهار يناسبه الإبصار، والليل يناسبه السمع[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله: (خصّ سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر، وضعف سلطان السمع)[2].

ويقول العلامة زكريا الأنصاري رحمه الله: «**ختم آية الليلِ**» بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وآية النهارِ بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لمناسبة الليل المظلم

(١) تفسير الطبري رحمه الله.
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢٠٨).

الساكن للسَّماع، ومناسبة النهار النيِّر لِلإبصار «**فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**» [1].

وكذا قال العلامة السعدي رحمه الله: قال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وفي النهار: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ؛ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار [2]. تيسير الكريم الرحمن في تفسير «**كلام المنان**».

● **فائدة لطيفة:**

لماذا يقدم القرآن دائمـاً حاسة السمع على حاسة البصر؟

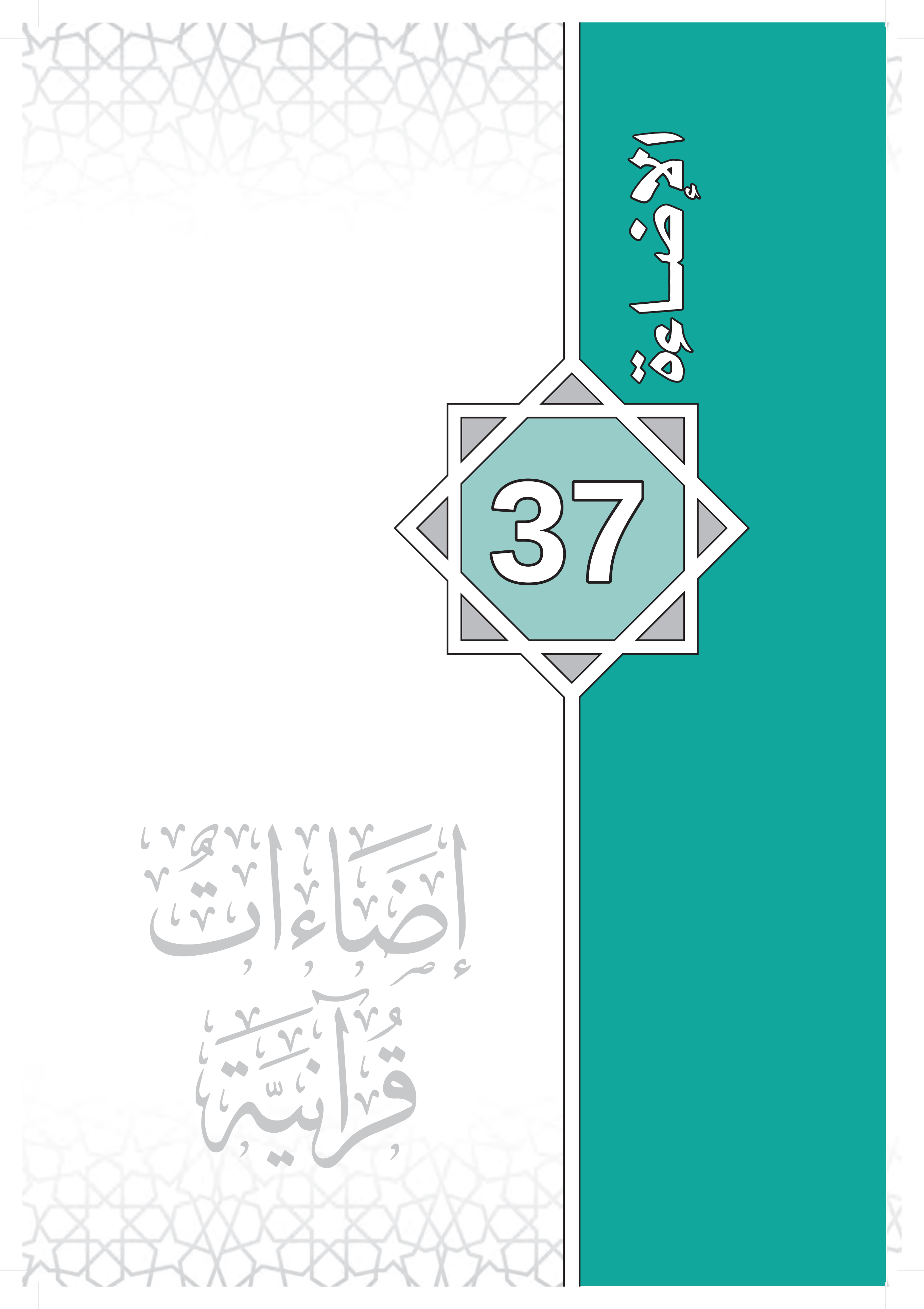
كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ النحل ﴿٧٨﴾.

وقال جل علاه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ الأحقاف ﴿٢٦﴾.

الحقيقة العلمية تؤكد أن السمع أكثر كمالاً وارهافاً، كما يصاحب السمع الإنسان حتى في نومه فينام بصره ولا ينام سمعه، والطفل عند ولادته يسمع قبل أن يرى، لذا قال سبحانه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الكهف ﴿١١﴾ دلالة على تعطيل كافة الحواس، وأهما السمع حتى يستغرق في النوم.

---

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن ص (٢٦١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص (٦٢٨) مطبعة مكتبة الرشد.


إضاءة
37
إضاءات قرآنية

هل يحتاج المسلمون آلافًا من الملائكة لتحقيق النصر؟

تعدّدت صيغ القرآن الكريم في ذكر حالات نزول الملائكة لنصرة المسلمين في الغزوات، وتباينت أعدادهم بين ألف وثلاثة آلاف وخمسة آلاف من الملائكة وصفوا مرة بأنهم ﴿مُرْدِفِينَ﴾ وأخرى ﴿مُنزَلِينَ﴾ وثالثة بأنهم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ كما جاءت الآيات في سورة **(آل عمران)** ثم في سورة **(الأنفال)**.

ويتبادر للذهن سؤال: هل يحتاج المسلمون آلاف الملائكة للنصر على الأعداء؟ إذا كان مَلَكًا واحداً رفع بطرف جناحه قُرى قوم لوطٍ بكاملها إلى السماء، ثم هوى بها إلى الأرض فجعل عاليها سافلها؟!

نجد الجواب واضحًا جليًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران ١٢٦، فقط لتطمئن القلوب!

أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإن النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه من دونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم.

لذا، قال في موضع آخر: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ محمد ٤.

فالنفس البشرية تركن إلى المحسوس، وتطمئن لما تشاهده وتشعر، وهذا ما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى طلب رؤية إحياء الرب جلّ وعلا للموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾ البقرة ٢٦٠.

ليطمئن قلبي!... وكذا فعل موسى عليه السلام حين طلب من ربه أن يراه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ الأعراف ١٤٣.

فقال تعالى بعدها لموسى عليه السلام: لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني...، وشبيه بهذا طلب الحواريين أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ المائدة ١١٣.

قال أبو جعفر: فنعلّم يقينًا قدرته على كل شيء (وتطمئن قلوبنا)، أي: وتسكن قلوبنا، وتستقرّ على وحدانيته وقدرته على كل ما شاء وأراد، ولعل هذا ما يميز أبوبكر الصديق رضي الله عنه، الذي اطمئن قلبه لحادثة الإسراء التي لا يستوعبها العقل البشري، ولا مقاييس المنطق المادي، ورد على المشككين، ذلك أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لما أُسري به إلى المسجد الأقصى، أصبح الناس يتحدثون، فارتد بعضهم ممن كانوا آمنوا به وصدّقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: (هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس)؟ قال: (أو قال ذلك؟) قالوا: (نعم)، قال: (لئن قال ذلك لقد صدق). قالوا: (أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح)؟! [(١)]

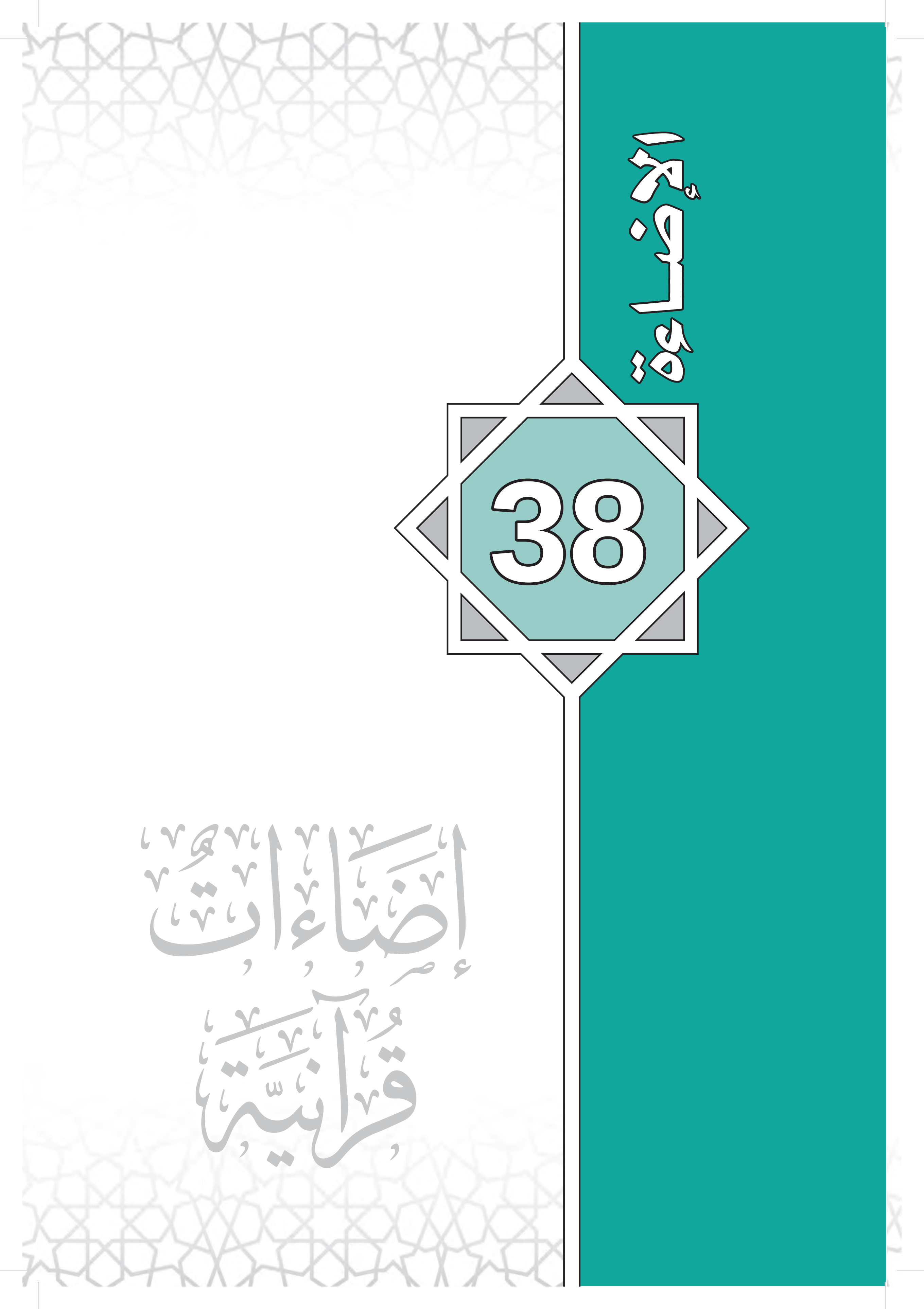
فقال كلمةً سُطِرّت بماء الذهب: إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك **(أصدقه بخبر السماء في غَدْوَةٍ أو رَوْحَةٍ)** فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق [(٢)].

فالشاهد أن نزول الملائكة والأخبار بعددهم جاء تطمينًا للقلوب لتزداد إيمانًا مع إيمانها كما تبيّن معنا.

---

(١) تفسير الطبري.
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١/ ٣٠٦)، والحاكم في المستدرك (٣- ٦٢/ ٦٣٠).




إضاءة
38
إضاءات قرآنية

لماذا وصفت العصا مرة بأنها (حية) ومرة بأنها (ثعبان)؟!

من يتأمل في الآيات التي تتحدّث عن عصا موسى عليه السلام، يلحظ أنها تتفاوت في وصف المعجزة، تارة تصفها بأنها تحولت إلى حية، وتارة أخرى تصفها بأنها تحولت إلى ثعبان، وأحيانا كأنها جان، وجاء ذكرها بالقرآن الكريم في مراحل ثلاث:

أولاً: عندما كان موسى سائراً بأهله ليلاً فأبصر ناراً وجاء ليستأنس بها فناداه الله ثم أمره أن يلقي عصاه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۝ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ طه ١٧-٢١.

ثانياً: حين ذهب موسى إلى فرعون فطلب منه فرعون الدليل على صدق رسالته، فألقى موسى عصاه، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ الأعراف ١٠٧.

ثالثاً: لما اجتمع مع السَّحَرة وألقوا حبالهم وعصيّهم وسحروا أعين الناس، فألقى موسى عصاه، لكننا لا نجد هنا أي ذكر لكلمة ثعبان أو حية، وذلك في قوله عزّ وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الأعراف ١١٧.

المتأمِّل في المواقف الثلاثة يجد أن العصا في الموقف الأول تحولت إلى حية صغيرة عندما أمر الله موسى أن يلقي عصاه وهو في الوادي المقدس، وهذا مناسب لسيدنا موسى لأن المطلوب أن يرى معجزة، وليس المطلوب أن يخاف منها، لذلك تحولت العصا إلى حية.

أما في الموقف الثاني أمام فرعون فكان المطلوب إخافة فرعون لعله يؤمن ويستيقن بصدق موسى عليه السلام، لذا: تحولت العصا إلى ثعبان، والثعبان في اللغة هو الحية الكبيرة المكتملة النمو من ضخامة وشراسة.

أما في الموقف الثالث أمام السّحَرَة فلم يتحدث القرآن أبداً عن عملية تحول العصا إلى ثعبان أو حية، بل نجد أن العصا تبتلع ما يأفكون، لأن السحرة أوهموا الناس بأن حبالهم تسعى، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ طه ﴿٦٦﴾، فلم يكن المطلوب هنا أن يخاف الناس بالثعبان، وليس المطلوب أن تتحول العصا إلى حية، بل المطلوب أن تتحرك العصا وتلتهم جميع الحبال والعِصِيَ بشكل حقيقي، لإقناع السحرة والناس بأن حبالهم تمثل السحر والباطل، وعصا موسى تمثل الحق والصدق.

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الأعراف ﴿١١٥﴾-﴿١٢٢﴾.

ويقول الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن»:

للاختلاف أسباب: الأول وقوع المخبر به على أحوال مختلفة كقوله تعالى في خلق آدم إنه من تراب، ومرة من حمأ مسنون، ومرة من طين لازب، ومرة من صلصال كالفخار، وهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأ والحمأ غير التراب إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وفي موضع تهتز كأنها جان، والجان الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركاتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته [١].

وجاء في (**معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم**):

(**الثعبان**): يتميز بالضخامة؛ ولذا جاء لوصف وقع المعجزة في نفوس فرعون، وبيان ضخامة تلك المعجزة.

و(**الحية**): تتميّز بالحياة؛ ولذلك جاء في سياق وصف المعجزة التي هي انقلاب الميت حيًا، وهذا ما لم يره فرعون وملأه، بل أراه الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام.

و(**الجان**): يتميز بالخفاء؛ ولذلك استعمل لبيان الحالة التي انتابت موسى عليه السلام من الفزع والخوف والعجب من هذا الشيء الذي يبدو وكأنه من عالم الجن [٢].

- الآيات القرآنية التي ورد بها لفظ (ثعبان) في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ الأعراف ١٠٧.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ الشعراء ٣٢.

- الآيات القرآنية التي ورد بها لفظ (حية) في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ طه ٢٠.

- الآيات القرآنية التي ورد بها لفظ (جان) في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ النمل ١٠.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي.
(٢) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم.

﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ القصص ﴿٢١﴾.

فالقرآن الكريم استعمل كل مصطلح في المكان المناسب الملائم للحدث، المؤدي للغرض، وتم ذلك كما أراد الله.

ففي السور التي فيها سياق خطاب تكليف لموسى عليه السلام، للدلالة على أن عصا موسى الجماد التي ليس بها حياة انقلبت حية وهذه معجزة لا يقدر عليها إلا الله لأن الحياة لا تكون إلا بأمره وقدرته.

وهذه هي المعجزة التي سيقابل بها موسى عليه السلام سحرة فرعون الذين اشتهروا بالسحر في زمانهم لكن سحرهم هو مجرد تخييل وإيهام للناس بأن الحبال التي يلقونها تتحرك وكأنها حيات تسعى أما عصا موسى عليه السلام فقد انقلبت حيّة حقيقية تدّب فيها الحياة وتسعى بحركة سريعة تلقف حبال السحرة وعصيّهم.

وكذلك كلمة الجانّ: استعملها القرآن الكريم في سياق الحديث عن التجربة العملية لموسى على معجزته حتى يتدرّب عليها ولا يخاف فجاء وصفها بأنها جانّ أي حيّة صغيرة خفيفة سريعة في حركتها حتى لا يخاف موسى ولهذا جاء بعدها في الآيتين الطلب من موسى عليه السلام ألا يخاف، ولو أن الله تعالى في هذه التجربة العملية ذكر لفظ ثعبان أو أفعى أو غيرها لخاف موسى بطبيعته البشرية من أن يلتقطها، ولكن وصفها على أنها جانّ وصغيرة لعله يتشجع فيلتقطها.

ثم جاء لفظ ثعبان في سياق المواجهة مع فرعون وقومه لإخافتهم وبثّ الرعب في قلوبهم وإظهار عظمة المعجزة فالعصا لم تنقلب مجرد حية صغيرة أو جانّ، وإنما ثعبان ضخم طويل ولذلك ألقي السحرة ساجدين بعدما رأوا هذه المعجزة العظيمة أنها حقيقة وليست خيالاً ووهماً كما يزعمون هم بسحرهم.




إضاءة
39
إضاءات قرآنية

وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً - فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا... كيف نوفق بينهما...؟

وصف ربنا سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء على الكافرين فقال: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ الفتح ﴿٢٩﴾ وأمرهم بالغلظة عليهم فقال: ﴿وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ التوبة ﴿١٢٣﴾. لكننا نجد في المقابل توجيهاً مختلفاً، في موضع آخر وهو الترفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ﴿١٢٥﴾.

بل إن هذا التوجيه الرباني شمل أعتى البشر كفراً وفسقاً وجحودا وعناداً وإفساداً في الأرض وهو فرعون الذي ادعىّ الربوبية والألوهية، فقال عزّ وجل لموسى عليه السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه ﴿٤٣﴾ -﴿٤٤﴾.

فكيف السبيل للتوفيق بين الغلظة من جانب، والرفق من جانب آخر؟!

وضع الإسلام منهجاً واضحاً بيناً لا لبس فيه في التعامل مع غير المسلمين، واعتمد أساليب شتى في المعاملة تختلف باختلاف الظروف والأحوال، وتباين المعاملات حتى في العقوبات الشرعية، وهي تختلف باختلاف الحال كما في عقوبة الزنا فتكون للمحصن الرجم حتى الموت، ولغير المحصن الجلد. لذا، فالأصل في التعامل مع الكفار المكابرين المعاندين وبخاصة في أجواء الحرب هو جهادهم والغلظة والشدة عليهم، وعدم الرأفة بهم، أو العطف عليهم، كما قال تعالى في وصف المؤمنين بأنهم ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ الفتح ﴿٢٩﴾، وأمرهم بالغلظة عليهم ﴿وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ التوبة ﴿١٢٣﴾.

أما الكفار المسالمين، فالأصل في التعامل معهم هو اللين والرفق ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة لتأليف قلوبهم طمعـًا في هدايتهم.

لقد وردت الغلظة في القرآن الكريم في موضعين أثنين:

١ـ أثناء القتال مع الكفار: ﴿وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ التوبة ﴿١٢٣﴾.

٢ـ عند تنفيذ حدود الله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾ النور ﴿٢﴾.

وثمة فرق بين معاند مكابر ومحارب، فلا مناص من التصدي للمحاربين حين يهاجمون الدين بألسنتهم، وأسلحتهم، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجـًا، لا بد هنا من الإغلاظ والشدة، وعدم الرأفة بهم.

فرق بين هؤلاء وبين كافر مسالم أو معاهد، أو من أهل الذمة، ولديه استعداد لسماع كلمة الحق. فالحال مختلف كما قال تعالى في شأن من طلب الجوار والأمان ليسمع كلام الله، كما مر معنا في إضاءة سابقة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة ﴿٦﴾.

أي: وإن استأمنك، أحدٌ من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، ليسمع كلام الله منك فأجره، أي: فأمّنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه، وليس هذا فحسب، بل: (ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) ثم رُدَّه بعد سماعه كلام الله إن هو أبي أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن حتى يلحق بداره وقومه من المشركين.

وتكون الدعوة لهؤلاء على بصيرة وحكمة، كما قال –عز وجل–: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف ﴿١٠٨﴾ وذلك ترغيبـًا لهم لاعتناق الإسلام، كما فعل ﷺ حين

فتح مكة وأعلن العفو العام: (اذهبوا فأنتم الطلقاء). حينها تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وجميل الخطاب.

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ١٢٥.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ العنكبوت ٦٤

• الولاء والبراء:

ونلحظ هنا أن الإسلام، فرّق بين أعمال الجوارح، وأعمال القلوب تجاه الكفّار فالمعاملة شيء، والمشاعر القلبية شيء آخر، تأمل قوله تعالى في المعاملة مع الكفّار:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة ٨، فتكون معاملة الكفار المسالمين بالحسنى، إذا لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم، ولو فعلوا ذلك فليس لهم إلا السيف.

أما في المشاعر القلبية تجاههم، فالأمر مختلف كما قال تعالى:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾ المجادلة ٢٢.

فالمعاملة لا تعني محبتهم ومودتهم أو التشبه بهم أو مشاركتهم في أعيادهم إطلاقًا، لا تلازم بين المعاملة والإحسان إليهم بالكلام، ومساعدة الفقراء منهم، ونحو ذلك من وجوه الإحسان والصلة، لا تلازم بين هذا وبين المودة والمحبة القلبية لهؤلاء.

وإليك عزيزي القارئ نماذج من دعوة الأنبياء لأقوامهم:

قال الله تعالى لموسى وهارون عندما كانا في مرحلة دعوة مع فرعون وكانت البداية: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه ﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾، فإنهما أمرا بالبدء باللين، ولكن لمّا طغى فرعون ورفض الحق، ورأى المعجزات والآيات، وأصرّ على استكباره، ودعوته الناس إلى عبادته من دون الله، قال له موسى قولًا شديدًا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الإسراء ﴿١٠٢﴾.

مثبورًا يعني: هالكًا، عندما لم ينفع اللين وازداد الطغيان، كانت الشدة في الكلام بعد اللين، وكان المسلمون إذا جاؤوا للكفار وعرضوا عليهم الإسلام أو الجزية أو القتال يوضحون لهم بالحكمة واللين أولاً، فإن لم ينفع ذلك وأبوا وصارت المناجزة بالسيف ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

ومن جميل صور الرفق في عرض الدعوة ما جاء في سورة النازعات من توجيه لطيف لموسى عليه السلام حين يتوجه لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ النازعات ﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾.

أخرّج الكلام مخرج السؤال والعرض، لا مخرج الأمر! وكذلك فعل إبراهيم الخليل عليه السلام، لما بدأ بدعوة أبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ مريم ﴿٤٢﴾، **(يَا أَبَتِ)** هكذا، بغاية الرفق واللين واللطف والتودد، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مريم ﴿٤٣﴾، وأظهر شفقته على أبيه ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ مريم ﴿٥٤﴾، وهكذا المؤمن في سورة (يس) ومؤمن آل فرعون، وكان الأنبياء يرغبون أقوامهم بما يحبونه، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ نوح ﴿١٠﴾- ﴿١١﴾، والناس

يحبون المال والبنين وهي مما يحبه الناس ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ نوح ﴿١٢﴾.

ولما أوصدت الأبواب في وجه إبراهيم في دعوة أبيه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ التوبة ﴿١١٤﴾، وكذلك نوح لما أبوا عليه، دعا عليهم، بعد أن كان يدعوهم!

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ نوح ﴿٢٦﴾.

وقل مثل هذا في قصة هود عليه السلام، قال تعالى:

﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ هود ﴿٣٨﴾.

فهذا هو الفرق بين البداية والنهاية، بين حال السلم والحرب، وتأمل إن شئت ما كان بين المسلمين والروم، قبل المعارك، كانت البداية باللين، كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم: (**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلّم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين**)[1] أي أتباعه ورعاياه الذين يتابعونه على الكفر.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.


إضاءة
40
إضاءات قرآنية

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً)... (لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ) كيف نوفّق بينهما؟!

المتتبع لنصوص الكتاب الحكيم يلحظ أن هناك آيات تثبت التبديل، أو النسخ، وأخرى تنفي التبديل...!

فمن الآيات التي تثبت التبديل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ النحل ١٠١.

ومن الآيات التي تنفي التبديل قوله جلّ وعلا: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يونس ٦٤.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنعام ١١٥.

فكيف نوفق بين آيات تنفي التبديل، وأخرى تثبتها...؟

وما الفرق بين النسخ، والتبديل؟

اقتضت الحكمة الإلهية التدرج في التشريع بما يوائم ويلائم المراحل التي يمر بها الإنسان في كل زمان، وهو ما اقتضى نسخ أو تبديل بعض النصوص من الكتاب والسنة التي تضمنت أحكاماً شرعية رحمة بالعباد، فجاء الإسلام خاتمًا للأديان، والقرآن خاتمًا للرسالات ومحمداً ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسلين، وينبغي بداية أن نفهم الفرق بين النسخ والتبديل فإن أصل النَّسْخ مِنْ «**نَسْخ الكِتَاب**» وَهُوَ نَقْله مِنْ نُسْخَة إِلَى أُخْرَى غَيْرهَا، فَكَذَلِكَ مَعْنَى نَسْخ الْحُكْم إِلَى غَيْره إِنَّمَا هُوَ تَحْوِيله وَنَقْل عِبَارَته عَنْهُ إِلَى غَيْره، وذلك للتخفيف والتيسير، مثاله: إن الله تعالى جعل الواحد من الصَحابَة يعادل العشرة في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الأنفال ٦٥، ثم نسخ

بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الأنفال ٦٦.

أما تبديل الآيات، فهو رفعها وأنزال غيرها تحقيقاً للمصلحة.

كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة ١٠٦.

وقال جل علاه ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد ٣٩.

ولنفهم هذه المسألة، نستعرض آراء العلماء والمفسرين بشيء من التفصيل:

يقول الشيخ محمد صالح المنجد: المقصود من الآيات التي فيها نفي التبديل لكلمات الله أنه لا أحد يبدّل كلمات الله، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يونس ٦٤.

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ الكهف ٢٧.

وقال قتادة: (**لا مبدّل لكلماته**) أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أما الحق سبحانه تعالى فله أن يبدل آية مكان آية، وهو النسخ، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ النحل ١٠١.

وقال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة ١٠٦.

واخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فقالوا: خيْر لَكُمْ فِي الْمَنْفَعَة وَأَرْفَق بِكُمْ، وَقَالَ آخَرُونَ: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْ الَّتِي نَسَخْنَاهَا، أَوْ بِخَيْرٍ مِنْ الَّتِي تَرَكْنَاهَا فَلَمْ نَنْسَخهَا.

أما قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد ﴿٣٩﴾، فالمراد به المحو والإثبات في صحف الملائكة.

والمراد بكلمات الله التي لا تبدل: كلماته الكونية، كسننه في خلقه، وما أخبر به من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فلا أحد يمكنه أن يبدل سنة الله وكلمته القدرية.

ولهذا جاء في أول الآية قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، فسنة الله وكلمته القدرية هنا: هي أن المؤمنين المتقين لهم البشرى في الحياة وبعد الممات، فمن يمكنه أن يغير ذلك؟!

وأما قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ فالكلام محمول على الكلمات الكونية، فالأمر كما سبق، وإن حمل على الكلمات الشرعية، أي القرآن الكريم الذي أوحي إلى النبي ﷺ، فلا مبدل لهذا القرآن، فقد تكفل الله سبحانه بحفظه [1].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ الكهف ﴿٢٧﴾.

(**لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**) يعني: لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله عزّ وجل؛ فيبدل آية مكان آية، وقوله: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يشمل الكلمات الكونية والشرعية، أما الكونية فلا يستثنى منها شيء، لا يمكن لأحد أن يبدل كلمات الله الكونية، إذا قضى الله على شخص بالموت ؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك، وإذا قضى الله تعالى بالفقر أو الجدب؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.

(١) موقع الإسلام ويب سؤال وجواب للشيخ محمد صالح المنجد.

أما الكلمات الشرعية؛ فإنها قد تبدل من قبل أهل الكفر والنفاق، فيبدلون الكلمات: إما بالمعنى، وإما باللفظ إن استطاعوا، أو بكليهما [1].

والحاصل: أن كلمات الله تعالى الكونية لا يستطيع أحد تبديلها، وكذلك كلماته الشرعية التي تكفل بحفظها وهي القرآن الكريم، وهذا لا يعارض أن الله سبحانه ينسخ منها ما شاء، وينزل آية مكان آية إذا أراد.

فالشاهد أن آية يونس ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾ بدأت بقوله تعالى:

﴿... الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يونس ﴿٦٤﴾، فإن هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة، ذلك هو الفوز العظيم.

وجاء في كتاب الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أَيْ: رفعناها وأنزلنا غيرها لنوعٍ من المصلحة ﴿والله أعلم﴾ بمصالح العباد في ﴿بما ينزِّل﴾ من النَّاسخ والمنسوخ ﴿قالوا﴾ يعني: الكفَّار ﴿إنما أنت مفترٍ﴾ كذَّابٌ تقوله من عندك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقةَ القرآن وفائدةَ النَّسخ والتَّبديل [2].

وذكر البغوي في تفسيره «**معالم التنزيل**»: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾، يَعْنِي وَإِذَا نَسَخْنَا حُكْمَ آيَةٍ فَأَبْدَلْنَا مَكَانَهُ حُكْمًا آخَرَ، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾، أَعْلَمُ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لِخَلْقِهِ فِيمَا يُغَيِّرُ وَيُبَدِّلُ مِنْ أَحْكَامِهِ [3].

وقال ابن الجوزي في تفسيره: قوله تعالى: وإذا بدلنا آية مكان آية سبب نزولها أن الله تعالى كان ينزل الآية فيعمل بها مدة ثم ينسخها، فقال كفار قريش: والله

(١) مجموع فتاوى لإبن عثيمين (٨/ ٣٧٠).
(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي.
(٣) معالم التنزيل للبغوي.

ما محمد إلا يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر ويأتيهم غداً بما هو أهون عليهم منه، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾.

والمعنى أنه إذا نسخنا آية بآية إما نسخ الحكم والتلاوة، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، والله أعلم بما ينزل من ناسخ ومنسوخ وتشديد وتخفيف فهو عليم بالمصلحة في ذلك، قالوا: إنما أنت مفتر أي كاذب بل أكثرهم لا يعلمون، فقَوْله تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخ مِنْ آيَة﴾ يَعْنِي جَلّ ثَنَاؤُهُ أن يغيرها بِأَنْ يُحَوِّل الْحَلَال حَرَامًا وَالْحَرَام حَلَالًا، وَالْمُبَاح مَحْظُورًا وَالْمَحْظُور مُبَاحًا، وَلَا يَكُون ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْر وَالنَّهْي وَالْحَظْر وَالْإِطْلَاق وَالْمَنْع وَالْإِبَاحَة، فَأَمَّا الْأَخْبَار فَلَا يَكُون فِيهَا نَاسِخ وَلَا مَنْسُوخ [1].

ويبقى معنى كلمة (ننسها) الواردة في الآية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ البقرة ١٠٦، فمعناه: نؤخرها كما قال بذلك ابن عباس، وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: **(أو ننسئها)** نثبت خطها ونبدل حكمها وقال عبيد بن عمير ومجاهد وعطاء: نؤخرها ونرجئها[2].

(١) زاد المسير في علم التفسير لإبن الجوزي.
(٢) تفسير إبن كثير رحمه الله.


إضاءة
41
إضاءات قرآنية

لماذا ختمت آية سورة النحل (إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) وآية سورة إبراهيم (إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)؟.

عجائب القرآن لا تنفد، وخزائنه لا تنضب، وفي كل كلمة سر ومعنى لمن يتأمل ويتدبر، وفي هذه الإضاءة نقف على معنى بليغ لختام آية في سورة إبراهيم وأخرى في سورة النحل، كلتا الآيتين جاءتا بصيغة واحدة تتحدى الإنسان أن يحصي النعم التي تفضل الله بها على عباده مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، إلا أن الأولى انتهت بعبارة مغايرة للثانية.

فما السر؟ ما الفرق بين ختام الآيتين؟

أولاً: هي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم ﴿٣٤﴾.

ثانياً: هي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النحل﴿١٨﴾.

يتجلّى الفرق في المقدمات التي سبقت كل آية، وفي سياقها العام، فقد جاءت آية إبراهيم بعد ذكر (صفات الإنسان) فختمت الآية بصفة الإنسان وهي الجحود للنعم ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وجاءت آية النحل في سياق **(صفات الله)** سبحانه وتعالى، فذكر ما يتعلق بصفات الله فناسب ذلك أن تختم الآية بكلمة: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لنتدّبر بالآيات التي سبقت آية سورة إبراهيم عليه السلام:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ إبراهيم ﴿٢٨﴾ - ﴿٣٠﴾

ثم عدّد النعم فقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إبراهيم ﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾.

وحين انتهى من سرد صفات الإنسان ونماذج من النعم، قال عزّ من قائل: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم ﴿٣٤﴾.

فناسب ذلك ما ذكر من صفات الإنسان.

أما في سورة النحل فقد تحدثت الآيات السابقة عن نعم الله أولاً: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

ثم ذكر صفاته جلّ جلاله:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا

مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ النحل ﴿١٠﴾ - ﴿١٧﴾.

عندها قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فهو حين تكلّم عن صفات الله تعالى والنعم قال ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ولمّا تكلّم عن صفات الإنسان قال ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فكل كلمة جاءت مناسبة للسياق الذي وردت فيه.

ثمة ملاحظة هنا: وهي الفرق بين كلمة (النِعمة) بكسر النون، و(النَعمة) بفتحها في القرآن.

يقول الدكتور فاضل السامرائي: نِعمة بالكسر في القرآن دائماً تأتي في الخير كما في سورة النحل ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أما نَعمة بالفتح، فإنها لم ترد في القرآن إلا في السوء والشر والعقوبات، كقوله تعالى في سورة الدِخان ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ وفي سورة المزّمل ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾.

ثم يقول: ودلالة استخدام كلمة (نعمة) بالإفراد ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن المفرد له قد يدل على الجنس أو على الواحد. مثلاً تقول: الحصان أسرع من الحمار، وتعني كل الجنس، الأسد أقوى من الكلب، لا تعني به أسداً واحداً وإنما الجنس، وهكذا[١].

(١) موقع محبي الدكتور فاضل صالح السامرائي.


إضاءة
42
إضاءات قرآنية

وهل يشك الرسول ﷺ بالرسالة؟

قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يونس ﴿٩٤﴾.

أشكل فهم هذه الآية على طوائف من الناس وقالوا: كيف يقع الشك من النبي ﷺ؟ وكيف يؤمر بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله؟

أَوَ كان رسول الله عليه الصلاة والسلام في شكٍّ مما أنزل الله إليه وبالرسالة التي اصطفاه الله لحملها وتبليغها للناس؟

باستعراض آراء أهل العلم نجد نفياً قاطعاً لهذا الكلام جملة وتفصيلاً، إذ لا يعقل أن يشك رسول برسالته فهذا أمر بديهي.

وقد تحدث ابن القيّم رحمه الله عن هذه المسألة باستفاضة في كتابه «**أحكام أهل الذمة**» فقال: أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيراداً وقالوا: «كان في شك، فأمر أن يسألنا»..! وليس فيها بحمد الله إشكال، فالآية من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، وليس فيها ما يدل على وقوع الشك، ولا السؤال أصلاً؛ فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل، والخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ إلا أن المراد غيره لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، فالخطاب موجه للأمة ممثلة بشخصه عليه الصلاة والسلام.

كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الأحزاب ﴿١﴾، والمراد أتباعه بهذا الخطاب، كما يقول أحدهم: «**إياك أعني واسمعي يا جارة**»[1] انتهى كلامه.

(١) أحكام أهل الذمة لإبن القيم.

وقال أبو إسحاق: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ، والخطاب شامل للخلق، والمعنى: وإن كنتم في شك، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يونس ١٠٤.

ـ المصدر السابق ـ

وذكر ابن كثير في تفسيره أن رسول الله لم يشك، ولم يسأل مستشهداً بقول قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله قال: (**لا أشك ولا أسأل**) [1].

وكذا قال السعدي في تفسيره: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ، سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي: في ريبٍ واشتباهٍ، فإني لست في شك منه، بل لديّ العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة [2].

وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: (**لا أشك ولا أسأل**)، وقد ذكر ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم.

وهذا اختيار ابن جرير؛ قال: يقول تعالى لنبيه: (فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك، وأنزلنا إليك - من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي ؛ لأنهم يجدونك مكتوباً عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم - فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك مثل عبد الله بن سلام، ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك، دون أهل الكذب والكفر بك).

---

(١) تفسير إبن كثير رحمه الله.
(٢) تفسير السعدي ص (٣٧٢) مكتبة الرشد.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس ﴿١٠٤﴾.

فيقول القرطبي في تفسيره، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يريد كفّار مكة، إن كنتم في شكٍ من ديني أي في ريبٍ من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأوثان التي لا تعقل، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ويقبض أرواحكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين أي المصدقين بآيات الله [(١)].

(١) تفسير القرطبي رحمه الله.


إضاءة
43
إضاءات قرآنية

آية تأمر بقبول الفداء من الأسرى، وآية تأمر بقتلهم..!

حين قبل النبي ﷺ الفدية من الأسرى في غزوة (**بدر**) عاتبه ربه جل وعلا، وبين أنالأولى كان قتلهم فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال ﴿٦٧﴾

لكننا نجد في السورة ذاتها بعد آيتين توجيهاً آخر لقبول الفدية من الأسرى وعدم قتلهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأنفال ﴿٧٠﴾.

و في مكان آخر نجد تخييراً بين المنِّ والفداء.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾ محمد ﴿٤﴾.

فكيف نوفق بين الأمرين؟ وما هو الموقف الشرعي من أسرى الحرب..؟

لدى مراجعة كتب التفسير، وآراء أئمة التفسير نرى أن التعامل مع الأسرى اختلف باختلاف الظروف والمراحل، ففي كل مرحلة لها حكُم يناسبها حفاظاً على هيبة الدولة، وصوناً لها من أطماع أعداء الدين، كما حدث في حروب (الردّة) التي تجرأت بها بعض القبائل على الدين بعد وفاة النبي ﷺ، وادعى مسيلمة الكذاب وغيره النبوة، وامتنعوا عن دفع الزكاة، فكان موقف أبي بكر الصديق صارماً حازماً، وتبعه خالد بن الوليد في الشدة والحسم في نهاية المعارك حين حاصر مسيلمة وأتباعه في حديقة، ورفض خالد استسلام

أحد منهم وواصل قتالهم حتى فجر اليوم التالي، وحصدهم عن بكرة أبيهم، وسميت حديقة (الموت) التي قتل فيها مسيلمة وكل من معه.

فالشاهد أنه إذا التقى الجيشان فالواجب علينا بذل الجهد في قتل الأعداء دون أخذهم أسرى لئلا يفضي ذلك إلى ضعفنا ورجحانهم علينا، إذا كان هذا القتل قبل أن نثخن في الأرض بالعزة والقوة التي ترهب أعداءنا، حتى إذا أثخناهم في المعركة جرحـًا وقتلاً، وتم لنا الرجحان عليهم فعلاً، عندها يُرجّح الأسر الذي عبر عنه بشد الوثاق؛ لأنه يكون حينئذ من الرحمة الاختيارية، وجعل الحرب ضرورة تقدر بقدرها، لا ضراوة بسفك الدماء، ولا تلذذاً بالقهر والانتقام، ولذلك خيّرنا الله تعالى فيهم بين المنّ عليهم وإعتاقهم بفك وثاقهم وإطلاق حريتهم، وإما بفداء أسرانا عند قومهم ودولتهم إن كان لنا أسرى عندهم بمالٍ نأخذه منهم، ولم يأذن لنا في هذه الحال بقتلهم، فقد وضع الشدة في موضعها والرحمة في موضعها. وإذا كان بيننا وبين دولة عهد يتضمن اتفاقًا على الأسرى وجب الوفاء به وبطل التخيير بينه وبين غيره.

من هنا يتبّين لنا عدم التعارض، وأن المسلمين إذا كانت لهم الغلبة والقوة والقهر على أعدائهم المحاربين، عندها يمكنهم القبول بالفداء كشرطٍ لإطلاق سراح الأسرى.

وهذه طائفة من أقوال أهل العلم في هذه المسألة:

جاء في تفسير ابن كثير قوله عن هذه الآية ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...**﴾ نزلت بعد وقعة (**بدر**) فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسرى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، أي ما كان لنبي أن يحتبس كافرًا قدر عليه وصار في يده للفداء أو للمنّ، ذلك أن قتل أسرى المشركين كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم،

لذا قال: ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ أي حتى يبالغ في قتل الأعداء المشركين ويقهرهم[1] وذكر الإمام القرطبي كلاما شبيهـًا، فيقول عن قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...﴾ هذه الآية نزلت يوم بدر، عتابـًا من الله عزّ وجلّ لأصحاب نبيّه ﷺ، أي: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل وهو قبول الفدية في أول لقاء مع المشركين.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ والنبيّ ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا، وإنما فعله من كان معه في الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجهـًا بسبب من أشار على النبيّ ﷺ بأخذ الفِدية. هذا قول أكثر المفسرين، وجاء ذكر النبي ﷺ في الآية حين لم يَنْه عنه، ولكنه عليه السَّلام شغَله بَغْتُ الأمر ونزولُ النصر فترك النّهي عن الاستبقاء؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات.

متى يكون قبول الفدية؟

يقول سعيد بن جبير[2]: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأنفال ﴿٧٠﴾.

قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها النبي، قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم الفداء: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جُرْمكم بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله[3].

(١) تفسير إبن كثير رحمه الله.
(٢) نيل المرام من تفسير آيات الأحكام – صديق حسن خان.
(٣) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

يقول الأمام الطبري: وقوله تعالى في سورة محمد ﷺ التي تسمى سورة القتال أيضـًا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) فشدّوهم في الوثاق كي لا يقتلوكم، أو يهربوا منكم، قال ابن عباس: وإنما أمروا بشد الوثاق لئلا يفلتوا، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً.

وقال الحسن أيضـًا: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يقول: (فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوضٍ ولا فديةٍ، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي [١].

يقول الدكتور مصطفى مسلم [٢]: عاتب الله سبحانه وتعالى أنبياءه في مواقف مختلفة، واختص تعالى نبيه محمداً ﷺ باستخدام ألطف الألفاظ وأرقها، ليعرف الناس مقداره عند ربه، فكانت هذه اللغة تعلم الناس التأدب في الحديث مع النبي فهو عظيم القدر لا يخاطب إلا بلغة الاحترام والأدب، ومن أمثلة ذلك عتابه عز وجل لرسوله في بشأن أخذ الفداء من أسرى بدر، جاء بصيغة الغيبة أولاً، ثم بذكر إباحة ذلك لهم مباشرة، ولم يكتف بالإباحة بالأكل من الغنيمة، بل وصفه بالحلال الطيب، وختم بالنص على المغفرة والرحمة حتى لا يبقى أثر لتحرج النفس، فكان ذلك تخفيفـًا من وطأة العتاب وشدته على نفس رسول الله، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (الجزء الثامن).
(٢) الأساليب القرآنية في عتاب رسول الله للدكتور مصطفى مسلم.

يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأنفال ﴿٦٧﴾ - ﴿٦٩﴾.

● نسخ الآية:

ومن العلماء من ذهب إلى أن الآية ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

● هنا فائدة:

لماذا قدم سبحانه (المنّ) على (الفداء) في قوله تعالى:

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ محمد ﴿٤﴾

لأن في الآية الكريمة إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال، فالمجاهد في سبيل الله يقاتل لإعلاء كلمة الله، لا للمغنم المادي والكسب الدنيوي [1]

(١) آيات الأحكام للصابوني (٢ / ٤٤٩).


إضاءة
44
إضاءات قرآنية

آية تؤكد التفاضل بين الرسل، وآية (لا نفرق بينهم)!

ما الفرق بين الآيات التي تؤكد التفاضل بين الرسل والأنبياء...

والآيات التي تبين أن المسلم لا يفرق بينهم؟

لنتأمل الآيات التي تذكر التفاضل بين الرسل، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ..﴾ البقرة ﴿٢٥٣﴾.

وكذلك تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ الإسراء ﴿٥٥﴾.

أما الآية التي تذكر عدم التفريق بينهم فهي نهاية سورة البقرة...

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ البقرة ﴿٢٨٥﴾.

كأنما الأصل المساواة في المنزلة، وعدم التفضيل بين رسول وآخر، فكيف نجمع بين الأمرين؟

وجه سؤال مشابه للشيخ صالح الفوزان في موقعه الإلكتروني، هذا نصه: لا نختلف في منزلة الرسول ﷺ ولا في مكانته العظيمة التي تفوق كل النبيين والمرسلين والخلق أجمعين، ولكن توقفت عند قوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾، فما هو تفسير هذه الآية؟ وما المقصود منها؟

فقال الشيخ: يجب الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم ومحبتهم وتوقيرهم واحترامهم واجب، لأنهم أفضل الخلق، وهو

ركن من أركان الإيمان؛ كما قال النبي ﷺ الإيمان **(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)**[1].

وأما التفريق بين الرسل فهو يعني الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم كما فعلت اليهود وكما فعلت النصارى: فاليهود موقفهم من الرسل أنهم آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، حيث كفروا بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام، والبعض الآخر من الرسل قتلوه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة ٨٧

فاليهود فرَّقوا بين الرسل، فكفروا ببعضهم وقتلوا بعضهم، وحتى الذين آمنوا به لم يؤمنوا به إيمانًا صحيحًا؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بما يوافق أهواءهم مما جاء به، وما خالف أهواءهم كفروا به وتركوه.

والنصارى أيضـًا كفروا بمحمد ﷺ؛ فهم فرّقوا بين الرسل. أما أهل الإيمان الصحيح فإنهم آمنوا بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ فالذي كفر ببعض وآمن ببعض يكون كافرًا بالجميع؛ لأن الذي كفرَ به معه من الدليل ومن الحجة والبرهان على نبوته مثل ما مع الرسل الذين آمن بهم، فكفره به يكون كفرًا ببقيتهم.

وكذلك التفريق بين الرسل يعني تفضيل بعضهم على بعض من باب المفاخرة والتنقيص من حق بقية الأنبياء؛ فهذا لا يجوز أيضًا، بمعنى: لا تفاضلوا بينهم على وجه الافتخار وتنقيص المفضول، لذا ورد النهي عن تفضيل نبينا على موسى أو يونس بن متى صلى الله عليهم وسلم على وجه العصبية والحمّية، أو غير ذلك من الأسباب...

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب.

وَقَال شَارِحُ الطَّحَاوِيَّةِ: (الْمَنْهِيُّ عَنْهُ: التَّفْضِيل إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْفَخْرِ وَالْحَمِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الاِنْتِقَاصِ لِلْمَفْضُول) [1].

فقد روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئًا كرهه، فقال لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه، وقال تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا، فذهب إليه، فقال أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال لم لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رئي في وجهه، ثم قال لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي، ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى) [2].

وليس هذا نهيًا عن عموم التفضيل؛ لأنه ثابت بنصوص الكتاب والسنة، فلا شك أن الرسل يتفاضلون، وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى.

كما جاء في تفسير ابن كثير قوله: (وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الأحزاب ٧.

قال رحمه الله: وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى عَلَى الْمَشْهُورِ)، يخبر تعالى أنه فضّل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى:

(١) الموسوعة الفقهية (الجزء ٤٠).

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ..﴾

يعني: موسى ومحمدا ﷺ وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (ورفع بعضهم درجات) كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عزّ وجل. وجاء في كتاب «**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**» للواحدي:

أَيْ: لم نجعلهم سواءً في الفضيلة وإن استووا في القيام بالرِّسالة [1].

وذهب السعدي في تفسيره لسورة البقرة لهذا المعنى أن الباري يخبر أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليمـًا، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات صص [2]، وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقـًا، وعبده صدقـًا، وأن ما جاء به من عند الله كلّه حق، فجعله يُبرئ الأكمه والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، وكلّم الناس في المهد صبيـًا، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاما لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: وأيدّهم بروح منه لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر،

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي.
(٢) تفسير السعدي ص (٩٩).

وقيل: إن روح القدس- هنا- جبريل عليه السلام، أيده الله بإعانته ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول. وجاء في (**الموسوعة الفقهية**) (٤٠/ ٤٩):

مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (**مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمْ، فَقِيل: هَذَا كَانَ قَبْل أَنْ تَنْزِل عَلَيْهِ آيَاتُ التَّفْضِيل، وَقَبْل أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**). فَعَلَى هَذَا: التَّفْضِيل الْآنَ جَائِزٌ، وَقِيل: إِنَّمَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى سَبِيل التَّوَاضُعِ، وَقِيل أيضًا: (**إِنَّما نَهَى عَنِ الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ لِئَلاَّ يُؤَدِّيَ إِلَى أَنْ يُذْكَرَ بَعْضُهُمْ بِمَا لاَ يَنْبَغِي، وَيَقِل احْتِرَامُهُ عِنْدَ الْمُمَارَاةِ**).

وَقَال ابْنُ عَطِيَّةَ وَابْنُ تَيْمِيَّةَ: (إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ تَعْيِينِ الْمَفْضُول، بِخِلاَفِ مَا لَوْ فُضِّل مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ).


إضاءة
45
إضاءات قرآنية

أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ؟

كيف يسأل الرب جلّ وعلا عبده؟

من أسماء الله الجليلة (**العليم**) وصفته المشتقة منه (**العلم**)، فمن أسمائه (العليم والعالم والعلاّم)، وكلها صيغ مبالغة في سعة علم الله -سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل ﴿٦٥﴾.

قال ابن كثير: أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء من جليلٍ وحقيرٍ وصغيرٍ وكبيرٍ، حتى الذّر في الظلمات، ويعلم ما في الضمائر والحنايا، والسرّ عنده علانية، والأمر كله عنده سواسية، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ الرعد ﴿١٠﴾.

وقال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام ﴿٥٩﴾.

يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

وكذا قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ لقمان ﴿٣٤﴾.

ولكن كيف نوفّق بين هذه الآيات، وبين تساؤلات الرب جل وعلا لعيسى عليه السلام، وللملائكة؟!

ففي موضع يسأل سبحانه عيسى عليه السلام.

وفي موضع آخر يسأل الملائكة.

وفي موضع ثالث يقول: الآن خفّف عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً...!!!

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة ١١٦. أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ اِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ؟

وسأل سبحانه الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ الفرقان ١٧.

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾؟!

وقال تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال ٦٦، الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ!

حيث يبدو في ظاهر الأمر أن الرب جلّ وعلا يسأله عباده وملائكته في أمور من الدنيا، وقد أثار بعض الملحدين والنصارى شبهات حول هذه الآيات.

وقالوا: الله لا يعلم الغيب دائما بشهادة القرآن!

واستشهدوا بالآية السابقة: ﴿ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾ فقالوا: هل الله لا يعلم إن كان عيسى عليه السلام قال للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، كما ذكروا الآية: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ وركزوا على كلمة (الآن) كأن

العلم تعلق بزمان لاحق، وحاشى لله أنه علم فقط في هذه اللحظة وهو الذي علم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فكيف نفهم مراد الله من هذه الآيات؟!

والجواب على ذلك أن الله سبحانه علم قبل خلق الفعل، وبعد حدوث الفعل ووجوده، فعلم من الغيب ما لم يحدث بعد، وعلم مشاهَدْ قد حدث، ولهذا نظائر في غير ما موضع من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ وكذا في الآيات التي وردت في سورة الأنفال وهي تتحدث عن قوة المسلمين في غزوة **(بدر)** فقد عَلِمَ جل وعلا ضعفهم أزلاً، وعَلِمَه مشاهدة فلما بانَ ضعفهم واقعاً مشاهدة (الآن) رتّب الله عليه الحكم: أن خفّف عنهم...

وذكر الألوسي في تفسيره فائدة لطيفة في **(روح المعاني)** تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾ العنكبوت ③.

فقال: أي علم ظهور، يظهر للعباد الصادق من الكاذب بالامتحان [(١)].

وقالوا: إن له تعلقاً بالشيء قبل الوقوع وحال الوقوع وبعده وقال الطيبي: المعنى الآن خفّف الله تعالى عنكم لما ظهر متعلق علمه أي كثرتكم التي هي موجب ضعفكم بعد ظهور قلتكم وقوتكم [(٢)].

وجاءت عبارة: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في موضع الحال.

أي: خفّف الله عنكم وقد علم من قبل أن فيكم ضعفاً، فالكلام كالاعتذار على ما في الحكم السابق من المشقة بأنها مشقة اقتضاها استصلاح حالهم، وجملة الحال المبتدئة بفعل مضي يغلب اقترانها بـ **(قد)**.

---

(١) روح المعاني للألوسي.
(٢) التحرير والتنوير (١٠، ٧٠).

فليس المراد من هذه الآية ما توهمه هؤلاء من أن الله يجهل بواقع عباده، إن هذا المعنى غير مراد قطعاً، فالقرآن مليء بالآيات الصريحة والواضحة في إفادة أن الله يعلم من عباده ما يُسّرون وما يُعلنون، ويعلم من أقوالهم وأفعالهم ما يتجاهرون بها وما يتكتمون عليها، ويعلم من هو المصلح من عباده ومن هو المفسد من موارد علم الله التي أثبتتها آيات القرآن، ومعنى **(علم)** أو **(لنعلم)** بمعنى ان الله أبدى وأظهر ما كان يكنه من علمه الخاص الذي لم يطلع عليه رسول فاستبدل بالأمر أمراً، ويؤيد هذا الفهم بأن المراد هو التمييز والإظهار هو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت ١٠.

فالآية بعد أن صرّحت أن الله تعالى أعلم بما في صدور العالمين قالت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ مما يؤكد أن المراد من قوله تعالى: ﴿وليَعلمّنَ الله﴾ ليس هو العلم بعد الجهل، ويؤيد هذا أيضا قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يبتلي ما في صدورهم وهو من مكنون الغيب ويمحّص ما في قلوبهم وهو من مكنون الغيب، ثم يقول أنه (عليمٌ بذات الصدور) فإذا كان يعلم ما في صدورهم فلماذا الابتلاء والتمحيص؟ لو لم يكن الغرض منه التمييز والإظهار، وليس تحصيل العلم.

يقول الإمام بن كثير في تفسير هذه الآية: (هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى إبن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله، يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد. هكذا

قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك..) بقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ المائدة ١١٩ [(١)].

وجاء في كتاب: «**جَوَاهِرُ البَلاغَة في المَعَاني والبَيَان والبَدِيع**» فصل عن أنواع الاستفهام، وذكر منها: الإنكار كقوله تعالى: ﴿أغَيرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ والإنكار إذا وقع في الإثبات يجعله نفياً، كقوله تعالى: ﴿..أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي: لا شك فيه، وإذا وقع في النفي يجعله إثبات، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ أي: وجدناك، ثم الإنكار قد يكون للتكذيب نحو ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، أو يكون للتوبيخ واللوم على ما وقع نحو: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾.

مما سبق نعلم نوع الاستفهام المستخدم في تلك الآية، وهو الاستفهام الإنكاري النافي [(٢)].

(١) تفسير إبن كثير رحمه الله.
(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع.


الأضحية
46
إضاءات قرآنية

هل ما يصيبنا من مصائب وفتن من الله، أم من عند أنفسنا؟

يقول المولى جلّ وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ الشورى ﴿٣٠﴾.

وفي موطن آخر يقول سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ النساء ﴿٧٩﴾.

وفي مكان ثالث يقول تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ التوبة ﴿٥١﴾.

فالآية الأولى تقول أن ما أصابنا إنما هو بسبب ذنوبنا، وبما كسبت أيدينا، والآية الثانية تقول: ما أصابنا من حسنة فمن الله، وما أصابنا من سيئة فمنا، والآية الثالثة تقول: ما يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا!

فكيف نوفق بين هذه الآيات؟ وقل مثل هذا في الآيات التي تتحدّث عن (**الفتنة**)، فتارة تنسب لنا كقوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ الحديد ﴿١٤﴾.

قوله: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ نسبت الآية الفتنة للناس... وتارة تنسبها للرب جلّ وعلا، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿... إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ الأعراف ﴿١٥٥﴾.

فكيف نوفّق بين الأمرين؟ هل الفتنة من عندنا، أم من عند الله جلّ وعلا؟

سُئِل الشيخ عبدالعزيز بن باز في برنامجه (**فتاوي نور على الدرب**) عن هذه المسألة، وكيف نوفق بين هذه الآيات؟

فقال رحمه الله: ليس هناك تعارض، فالله جل وعلا بيّن لنا أن ما أصابنا هو بأسباب كسبنا، وأن ما يقع هو بقضائه وقدره، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ التوبة ﴿٥١﴾، فقد سبق علمه وقدره بكل شيء، ولكنه سبحانه علّق ما أصابنا مما يضرنا أنه بأسباب معاصينا وإن كانت مكتوبة مقدّرة لكن لنا كسبٌ ولنا عملٌ، ولنا الاختيار، فكل شيء يقع بقدر من الطاعات والمعاصي.

فما وقع منا من معاصٍ فهو من كسبنا ومن عملنا، ونحن مؤاخذون به، إذا فعلناه، وعندنا عقولنا فنحن مؤاخذون به، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ الشورى ﴿٣٠﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ النساء ﴿٧٩﴾، فلا تنافي بين القدر وبين العمل، فالقدر سابق ولله الحجة البالغة، والأعمال أعمالنا.

فالزنا وشرب الخمر وترك الصلاة والعقوق وقطيعة الرحم من أعمالنا، ونحن نستحق عليها العقوبة بسبب تفريطنا وتقصيرنا؛ لأن لنا اختيارًا ولنا عملًا يُنسب إلينا، وإن كان سَبَق في علم الله كتابته وتقديره، فالقدر ليس حجةً على فعل المعايب والمنكرات، فالله له الحكمة البالغة فيما مضى به قدره وعلمه وكتابته، ونحن مسؤولون عن أعمالنا وعن أخطائنا وتقصيرنا ومؤاخذون بذلك إلا أن يعفو ربنا عنا.

وبهذا تعلم أنه لا منافاةٍ بين الآيتين، فإحداهما تّدل على أن أعمالنا من كسبنا وأنا نستحق عليها العقوبة؛ لأنها أعمال فعلناها باختيارنا، والآية الأخرى تدّل على أنه مضى في علم الله كتابتها وتقديرها.

ففي الحديث الذي يرويه مسلم في (صحيحه) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: **(وعرشه على الماء)** [(١)].

رواه الترمذي بلفظ: **(قدرَّ الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)** [(٢)].

وفي الآية الأخرى يقول: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ الحديد ﴿٢٢﴾.

فكتاب الله سابقٌ وعلمه سابقٌ سبحانه، وقدره سابقٌ وأعمالنا محصاة علينا ومنسوبةٌ إلينا ومكتوبةٌ علينا وهي من كسبنا وعملنا واختيارنا، فنجزى على الطيّب الجزاء الحسن من الطاعات وأنواع الخير والذكر، ونستحق العقاب على سيئتها من العقوق والزنا والسرقة وسائر المعاصي والمخالفات، والله المستعان.

أما قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف ﴿١٦٨﴾.

أي امتحناهم واختبرناهم بالسراء والضراء، فالمنافقين كانوا إذا أصابتهم حسنةٌ مثل النصر والرزق والعافية، قالوا: هذا من الله، وإذا أصابتهم سيئةٌ مثل ضرب ومرض وخوف من العدو قالوا: هذا من عندك يا محمد أنت الذي جئت بهذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وابتلينا بهذه المصائب لأجله، فقال الله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ النساء ﴿٧٨﴾ أنت إنما أمرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، وما أصابك من نعمة: نصرٌ وعافيةٌ ورزقٌ فمن الله، نعمة أنعم الله بها عليك، وما أصابك من سيئةٍ: فقرٍ وذلٍ وخوفٍ ومرضٍ وغير ذلك، فمن نفسك وذنوبك وخطاياك.

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٢) رواه الترمذي.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ آل عمران ﴿١٦٥﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ الشورى ﴿٤٨﴾، فالإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنفسه، فإذا تاب واستغفر جعل الله له من كل همٍ فرجًا ومن كل ضيقٍ مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

والذنوب مثل أكل السمّ، فإذا أكل الإنسان السمّ مرض أو مات، فهو الذي يمرض ويتألّم ويتعذّب ويموت، والله خالق ذلك كله، وإنما مرض بسبب أكله، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم. فإن شرب الترياق النافع عافاه الله، فالذنوب كأكل السم، والترياق النافع كالتوبة النافعة، والعبد فقير إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضله ورحمته يلهمه التوبة، فإذا تاب، تاب الله عليه، وإذا سأله العبد ودعاه استجاب لدعائه.

وما يقال عن (**المصائب**)، يقال عن (**الفتن**) كما في الآية السابقة:

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ...﴾.

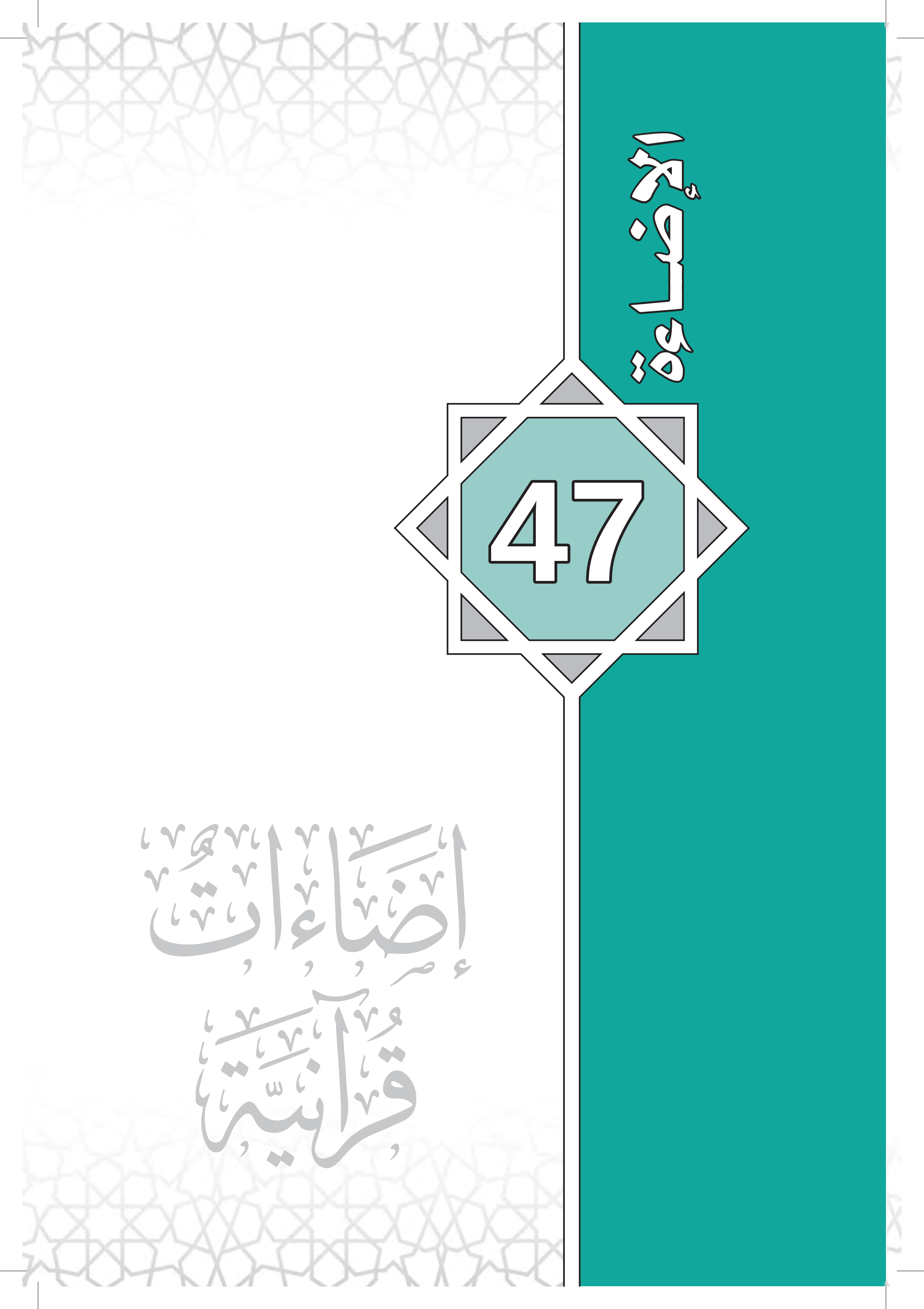
قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات (**وتربصّتم**) أي: أخرّتم التوبة من وقتٍ إلى وقتٍ، وكذلك الآية الأخرى التي ذكرناها في بداية الحديث، وهي قوله تعالى: ﴿... إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ الأعراف ﴿١٥٥﴾.

يقول الإمام القرطبي:

إن هي إلا فتنتك: أي ما هذا إلّا اختبارك وامتحانك. وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه، كما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى: وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ طه ﴿٨٥﴾، فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوباً للعبادة وله خوارٌ قال إن هي إلا فتنتك تضل بها أي بالفتنة من تشاء وتهدي من تشاء [١].

(١) تفسير القرطبي رحمه الله.


إضاءة
47
إضاءات قرآنية

هل يسأل الله العباد يوم القيامة، أم لا يسألهم؟

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحجر ﴿٩٢﴾ -﴿٩٣﴾.

وفي موضع يقول تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ الرَّحْمَنِ ﴿٣٩﴾

فكيف نجمع بين الآيتين؟

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسألون سؤال الاستفهام، لأنه تعالى عالمٌ بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال التقريع والتوبيخ، يقال لهم:

لِمَ فعلتم كذا؟

أما قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ وهو سؤال استعلام.
وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَتَيْنِ: إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ طويل فيه مواقف مختلفة يُسْأَلُونَ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ وَلَا يسألون في بعضها، نظير ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ الْمُرْسَلَاتِ ﴿٣٥﴾.

وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ الزمر ﴿٣١﴾[1].

ومما يستأنس به في هذا المقام ما جاء في قصة الفاروق رضي الله عنه مع رجلٍ من أهل العراق قدم إلى المدينة وجعل يثير الشبهات بين عامة المسلمين في الأسواق وفي منتدياتهم، وقال: لدي مسائل، الله يقول في القرآن: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويقول في آية أخرى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾.

(١) كتاب معالم التنزيل للحسين بن مسعود البغوي (الجزء الرابع).

فهل يسألنا الله، أم لا يسألنا؟

فَحَار الناس واضطربوا وعجزوا عن الرد!! ثم تركهم وذهب لتجمع آخر وطرح ذات المسألة، حتى وصل أمره إلى عمر فأتى به، وقال له: ما لديك؟ اطرح علي مسائلك، فقرأ عليه الآيتين ثم قال: أخبرنا يا عمر هل الله يسألنا أم لا يسألنا؟ فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن يوم القيامة يومٌ طويلٌ، يوم تعرض فيه الصحف، ففي موطن يُعنّف العاصي، يقال له: زنيت، سرقت، كذبت، ولا يطلب منه أن يجيب على هذه الأسئلة لأنها ثابتة عليه، هنا قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾، وفي موطن تعرض عليهم صحفهم... ويسأل، ويقال له: لماذا زنيت؟ لماذا سرقت؟ لماذا فعلت؟

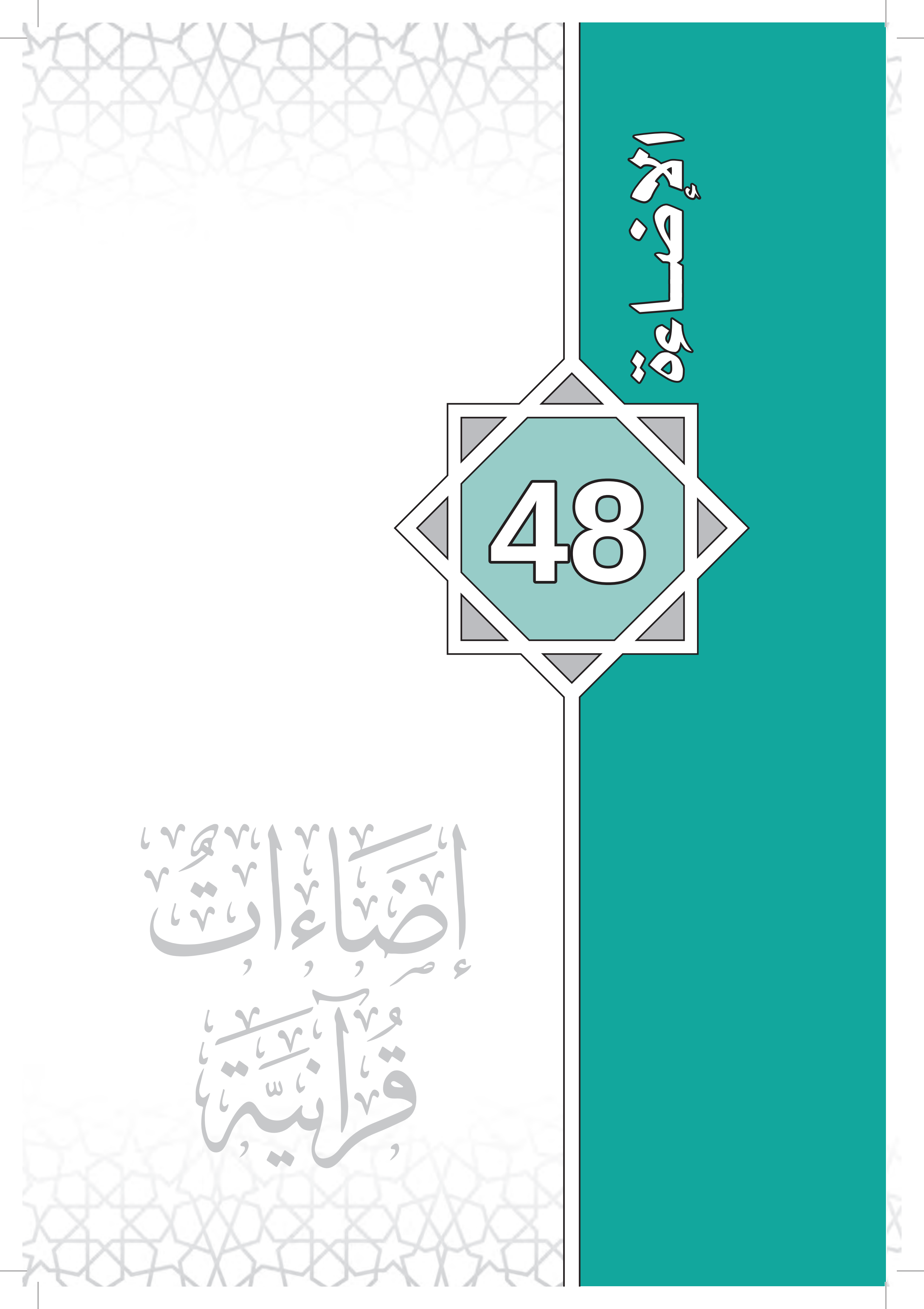
فهو في مواطن يُعنّف ليعرف جلالة شره وفجوره، وفي موطن أخرى يحاسب، ثم قال له: هل فهمت؟ قال الرجل: نعم

فلما أجابه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال له: لما كان عندك مسائل لماذا لم تأتِ إلي؟ لماذا لم تذهب لابن عمر أو ابن عباس أو علي؟ لماذا ذهبت إلى الأسواق ولعامة الناس وجاهلهم وجعلت تشككهم في القرآن لتفتنهم في أمرهم؟!!

فَسَكَت الرجل ولم يجُب، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اجلدوه، فجلدوا ظهره وضربوا رأسه ضربات بسيطة، ثم قال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل بقي برأسك شيء؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما بقي في رأسي شيء، ولما تولى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام عليه الخوارج وأوباش الناس وطلبوا من عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ينضّم إليهم، فَحَكَ ظهره وقال: أما أنا فقد أدبني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فوالله لا أدخل معكم في شبهة بعد ذلك...![1]

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٤٥٨) بتصرف.




إضاءة
48
إضاءات قرآنية

ما الفرق بين عبارة (إن شاء الله) و(بإذن الله) في القرآن الكريم؟

وردت عبارة (**إن شاء الله**) وعبارة (**بإذن الله**) في مواطن كثيرة من القرآن فما الفرق بينهما؟

لقد تباينت آراء علماء اللغة حول هذه المسألة، فيرى بعضهم أن عبارة (**إن شاء الله**) تختص بالمستقبل، وعبارة (**بإذن الله**) تختص بالماضي والمضارع بينما يرى آخرون أنه لا فرق بين العبارتين، ولكل فريق أدلته، لذا: نعرض أقوال الفريقين.

- **الفريق الأول قال**: إن الآيات التي جاءت بها عبارة (بإذن الله)، تروي أحداثاً وقعت في الماضي، أي أنها حدثت بمشيئة الله، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ البقرة ٢٥١.

فقالوا: لا يقال: فهزموهم إن شاء الله، وكذا قوله تعالى:

﴿... وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ..﴾ البقرة ١٠٢.

فلا يقال: وما هم بضارين به من أحد إن شاء الله، وأيضا قوله تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ البقرة ٢٤٩.

فلا يقال: كم من فئة قليلة هزمت فئة كثيرة إن شاء الله، ومنها قوله:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ البقرة ٩٧.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾ آل عمران ٤٩

وأشاروا إلى الآية التي تتحدث عن السحر في سورة البقرة وقالوا:

إنها جاءت بصيغة الفعل المضارع: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ البقرة ١٠٢، أي أنه إذا (وقع) الضرر فما وقع إلا بمشيئة الله تعالى، فالمقصود أن عبارة بإذن الله تختص بما حدث في الماضي.

أما الأحداث أو الظروف التي قد تقع في المستقبل فقد جاءت الآيات بـ ﴿إن شَاءَ اللهُ﴾، مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ الكهف ٢٣ -٢٤، ومنها قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ البقرة ٧٠.

وقوله: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ يوسف ٩٩.

وقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ الكهف ٦٩.

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ القصص ٢٧

وكذلك قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الصافات ١٠٢.

ومن ثم: فالأفعال التي ينوى المسلم أن يقوم بها في المستقبل عليه أن يقول (إن شاء الله)، ولا يمنع هذا من القول أنه لو حدث شيء في المستقبل فبإذن الله، كأن نقول: إذا ذهبت الى المسجد غداً بإذن الله، والآيات التي تتحدث عن عيسى عليه السلام جاءت بصيغ الفعل الماضي والفعل المضارع مع **(بإذن الله)**:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾ آل عمران ٤٩.

ولم يقل: إني خلقت لكم من الطين كهيئة الطير فنفخت فيها فكانت طيراً بإذن الله، لأن بداية الآية جاءت بصيغة الماضي: أنّي قد جئتكم بآية من ربكم، ولأن الأفعال الثانية بصيغة المضارع، فنفهم أن تلك المعجزات من المسيح كانت قد وقعت أمام القوم لأنها انتهت بكلمة الماضي **(بإذن الله)**، وأنه لو طلب بنو إسرائيل منه تكرارها مرة أخرى لفعل عيسى ليثبت صدق تأييد الله تعالى له، لذا جاءت بصيغة المضارع، وهذا من البلاغة القرآنية.

إذاً، فعبارة (بإذن الله) بعد كل معجزة تثبت أنها وقعت في الماضي، والتأكيد على أنها ستقع لا محالة في المستقبل إذا طلب بنو إسرائيل تكرارها.

- **ويرى الفريق الآخر**: أنه لا فرق بين الأمرين: **(إن شاء الله)** و**(بإذن الله)** وذكروا لهذا عدة أسباب عدة، أهمها:

أولاً: أن معنى العبارتين متقارب، فالتعليق على مشيئة الله، يشابه التعليق على إذنه سبحانه، حيث إن كلاً من المشيئة العامة، والإذن الكوني القدري من خصائص وصفات الربوبية المستحقة للخالق جلّ وعلا، وما شاءه الله، فقد أذِن بكونه حقيقة، وما أذِن به سبحانه، فقد شاء خلقَه وإيجادَه، وهكذا يترادف استعمال كل منهما.

ثانيًا: أن الاستعمال القرآني لكل من هذين اللفظين أيضا متقارب، ولم نجد فرقًا بينهما في المعنى أو في السياق، قال تعالى في (الإذن): ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ إبراهيم ١١.

وكذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد٣٨.

وقال في (المشيئة): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ الفرقان﴿١٠﴾، بل وفي القرآن الكريم بعض الآيات التي ورد فيها اللفظان يدلان على معنى متقارب في آية واحدة، وذلك في قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الشورى﴿٥١﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ النجم ﴿٢٦﴾.

ثالثـاً: لم نجد لدى المفسرين أو علماء العقيدة أو شُرّاح الحديث من يفرّق بين الإستعمالين، بل وجدنا عندهم من يفسر المشيئة بإذن الله سبحان، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله: «المراد بالمشيئة إذن الله له» [1].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (إذن الله نوعان: كوني، وشرعي) ؛ وسبق بيانهما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ البقرة ﴿٩٧﴾، ولدى الفقهاء باب يسمى باب (**الاستثناء**)، يَرِدُ في حديثهم عن الأيمان والنذور والطلاق وغيرها، وهو «كل تعليق على مشيئة الله ونحوه مما يُبطِل الحكم».

وقالوا: إن قولك (**بإذن الله**) استثناء كقولك (**إن شاء الله**) [2].

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.
(٢) الموسوعة الفقهية (٧/ ٢٧٨).




إضاءة
49
إضاءات قرآنية

هل يشمل الهلاك كل القرى، أم القرى الظالمة فقط؟!

جاء في بعض نصوص الكتاب أن السنن الكونية اقتضت أن تهلك كل القرى قبل يوم القيام كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ الإسراء ﴿٥٨﴾.

إلا أننا نرى في موضع آخر، أن الهلاك مقيد بالقرى الظالمة فقط، ولن ينال القرى التي أهلها مصلحون، كما قال عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ هود ﴿١١٧﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ القصص ﴿٥٩﴾.

فكيف نوفق بين الآيات؟!

رجّح معظم المفسرين أن الهلاك مقيد بالقرى الظالمة كما في الآية السابقة، وهي قرى الكفّار الذين جحدوا واستكبروا وأعرضوا، وتمادوا في غيهم وطغيانهم وشركهم، فاستحقوا العذاب الأليم قبل قيام الساعة.

ويبدو أن هذا الرأي أقرب إلى الصواب، لتضافر الآيات التي تؤيد هذا المعنى ومنها الآية السابقة: ﴿وما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ﴾ فقد بيّنت أن العلّة في الهلاك هي تفشّي الظلم بين أهل هذه القرى، دون إنكار من أحد عجزاً، أو تخاذلاً، أو تواطؤاً مع الظالم.

لذا: شَدّد القرآن الكريم على خطورة هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال ﴿٢٥﴾، وحذر الشارع الحكيم من الركون إلى الظالم، فيشمل العذاب الجميع:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هود ﴿١١٣﴾، فيستوي حينها الظالم ومن سانده أو سكت على ظلمه، كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**) **قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالما؟ قال: (تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ)** [1].

وفي رواية في «صحيح الترمذي» عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**)، قلنا: يا رسول الله، نصرته مظلومـاً، فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: (**تَكُفُّهُ عن الظلمِ فذاكَ نصرُكَ إيَّاهُ**) [2].

ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ﴾ الأنعام ﴿١٣١﴾.

• هناك رأيان في تفسير كلمة الظلم:

الأول: أن المقصود بالظلم الشرك: أي يهلكها بشرك وكفر أهلها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان ﴿١٣﴾، ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُون﴾ يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلاً تنبههم على حجج الله عليهم، وتنذرهم عذاب الله يوم معادهم إليه، ولم يكن بالذي يأخذهم غَفْلة فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾.

الثاني: يرى أن المقصود بالآية ﴿ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ﴾ أن الله لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرُّسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلامٍ لعبيده.

(١) صحيح البخاري برقم (٦٩٥٢).
(٢) صحيح الترمذي.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب عندي، القولُ الأول بأن الله لم يكن ليهلكهم بشركهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ الأنعام ﴿١٣١﴾، جاء عقيب قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ ففي هذا دليل واضح على أن معنى الآية: إنما فعلنا ذلك من أجل أنَّا لا نهلك القرى بغير تذكيرٍ وتنبيه[١].

وقال الطاهر بن عاشور عنها في كتابه «**التحرير والتنوير**» عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ لما هدّد المشركين في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ وتحدّاهم بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ الإسراء ﴿٥٦﴾، جاء بصريح التهديد بأن كل قرية مثل قريتهم في الشرك لايعدوها عذاب الاستئصال، وهو يأتي على القرية وأهلها، أو عذاب الانتقام بالسيف والذل والأسر والخوف والجوع، كل ذلك في الدنيا.

فالمراد: القرى الكافر أهلها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ القصص ﴿٥٩﴾، وحذف الصفة في مثل هذا معروف، كقوله تعالى: ﴿... وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الكهف ﴿٧٩﴾.

أي: كل سفينة صالحة، بقرينة قوله: ﴿... فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا..﴾.

وليس المقصود شمول ذلك القرى المؤمنة، لأن ذلك معارض لآيات أخرى، ولأنه منافٍ لغرض تحذير المشركين من الاستمرار على الشر.

(١) تفسير الطبري رحمه الله.

فلو سلّمنا أن هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنة الله في مصير كل حادث إلى الفناء، لما سلّمنا أن في ذكر ذلك هنا فائدة.

والتقييد بكونه قبل يوم القيامة زيادة في الإنذار والوعيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ طه ﴿١٢٧﴾، وبهذا يتبيّن أن أي قرية تتصف بصفات الكافرين معرضّة للإهلاك والتدمير من قبل رب العالمين، أو للعذاب والانتقام على أيدي المؤمنين، مهما كانت قوتها. والله أعلم [1].

ومال السعدي في تفسيره إلى الرأي ذاته فقال في الآية: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ قال: أي ما من قرية من القرى المكذبة للرسل لا بد أن يصيبها هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه [2].

وهناك من المفسّرين من يرى أن الوعيد يشمل كل القرى، وذلك يوم القيامة، وأن المقصود كل القرى سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين، يعلق الطبري في تفسيره على الآية السابقة بقوله: يقول تعالى ذكره: وما من قرية من القرى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء، فمبيدوها استئصالاً قبل يوم القيامة، أو معذّبوها، إما ببلاءٍ من قتلٍ بالسيف، أو غير ذلك من صنوف العذاب عذابا شديداً، واستشهد بقول مجاهد، في قول الله عزّ وجلّ ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال: أي مبيدوها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ بالقتل والبلاء، قال: كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا [3].

وروى عن مقاتل أنه قال: **(الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة...)**.

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.
(٢) تفسير السعدي رحمه الله ص (٤٦٣)، مكتبة الرشد.
(٣) تفسير الطبري رحمه الله.

وقال قتادة: قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ، إما أن يهلكها بموتٍ وإما أن يهلكها بعذابٍ مستأصلٍ إذا تركوا أمره، وكذّبوا رسله.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يعني في الكتاب الذي كتب فيه كلّ ما هو كائن، وذلك اللوح المحفوظ.

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الألوسي -رحمه الله- فقد قال: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ) الظاهر العموم، لأن إِنْ نافية، ومِنْ زائدة لاستغراق الجنس، أي: وما من قرية من القرى ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ بإماتة أهلها حتف أنوفهم أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً بالقتل وأنواع البلاء، ويقول القرطبي: قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً[1].

وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في أهل قرية أذن الله في هلاكهم.

(١) روح المعاني للألوسي.


إضاءة
50
إضاءات قرآنية

لماذا دعا نوح عليه السلام على قومه...؟!

حين نعقد مقارنة بين موقف بعض الرُسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، نجد تفاوتـًا في الحلم، والصبر، وتباينـًا في الشدّة واللين، كما هو الحال في قصة نوح، وقصة إبراهيم عليهما السلام، وقد بيّن لنا المصطفى ﷺ هذا التفاوت في تشبيه أبوبكر بإبراهيم وعيسى عليهما السلام، وتشبيه عمر بنوحٍ وموسى عليهما السلام، كما جاء ذلك في قصة أسارى **(بدر)** حين استشار النبي ﷺ أبوبكر وعمر، فلما سمع منهما، قال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إبراهيم ﴿٣٦﴾، وكمثل عيسى إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة ﴿١١٨﴾.

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ نوح ﴿٢٦﴾، وكمثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يونس ﴿٨٨﴾. رواه الإمام أحمد والترمذي[1].

وهذا ما نلمسه في قصص الأنبياء، إذ تجلت سمة الحلم في أروع صورها في شخصية إبراهيم عليه السلام، وامتدحه الله بها: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ هود ﴿٧٥﴾، وبشرّه بغلام يحمل ذات الصفة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ الصافات ﴿١٠١﴾، كرامة له، فالحلم من خصال الداعية الرباني الجميلة، ومن سجاياه الفريدة التي تعينه

(١) أخرجه أحمد (٣٦٣٢) وابن أبي شيبة (٣٧٨٤٥)، وأبويعلي (٥١٨٧) مطولًا باختلاف يسير وأبوداود (٣٠٢٦).

على تحمل وعثاء الطريق، وتمده بالصبر على الأذى، بلا ضجرٍ ولا كللٍ ولا مللٍ، ولا قنوطٍ، فلا يستوحش لقلة السالكين ولا ييأس لكثرة الهالكين، بل يمشي برفق ولين ورحمة بالناس أجمعين، كما حدث لإبراهيم عليه السلام مع أبيه...

فالوالد يهدّد: (**لأرجمنّك**) والولد يترّحم: (**لأستغفّرن لك**)!

وكما فعل يوسف ؛ مع إخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ وكذا قول النبي محمد ﷺ لأهل مكة: (أذهبوا فأنتم الطلقاء) [1] قابلوا الإساءة بالإحسان، والزلات بالعفو والغفران.

ولكن رأينا في قصة نوح عليه السلام اسلوبًا مغايراً، ونهجًا مختلفاَ، بدأ بالرفق واللين، وانتهى بالشدّة وبهجران قومه، بل والدعاء عليهم!

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ نوح ﴿٢٦﴾.فهل نَفَدَ صَبرُه، وضاق بهم ذرعًا حتى اضطر للدعاء عليهم بالهلاك، بدل أن يدعو لهم؟!... فاستجاب الله له، فأغرق أهل الأرض جميعهم إلا ما شاء الله!

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا...﴾ نوح ﴿٢٥﴾.

من يستعرّض قصة نوح عليه السلام، وتوالي الأحداث يجد أن لهذا الدعاء مقدّمات ومبررّات ومسوغّات منطقية، فقد لَبِث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامـًا، يدعوهم بكل السبل وكل الأوقات ليلاً ونهاراً، وبكل الحالات سراً وجهاراً فلم يجد إلا الصّد والإعراض، بل والسخرية والازدراء، ولم ييأس ولم يثنه ذلك عن مواصلة الجهد، فما آمن معه إلا قليل أما الأكثرون فقد كذّبوه وسخروا منه واتهموه بالجنون وحالوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه وهددوه بالرجم إن لم ينته،

(١) ضعفه الألباني في الضعيفة (١١٦٣) ولكن تسمية من أطلقهم النبي ﷺ وتخلى عنهم يوم الفتح بالطلقاء ثابت في السنة.

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ الشعراء ﴿١١٦﴾، لكنه لم يبال بتهديدهم، فواصل دعوته لهم حتى إذا ضاق ذرعاً باستكبارهم، واستهزائهم لجأ إلى ربه بهذه الشكوى، قال سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ نوح ﴿٥﴾-﴿٩﴾.

يقول سيد قطب رحمه الله: فإذا لم يستطيعوا الفرار لأن الداعي واجههم مواجهة، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم، وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم وأصروا على الضلال، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الهدى والحق ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِم وَاستَغشَوا ثِيَابَهُم وَأَصَرُّوا وَاستَكبَرُوا استِكبَاراً﴾ وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها، ولكنهم يُصّرون على الضلال، وتبرز من ثنايا إصرارهم ملامح طفولة بشرية عنيدة، تظهر في وضع الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب، والتعبير يرسم بكلماته صورة عناد طفولي وهو يقول: إنهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِم﴾ وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسّدونها بأطراف الأصابع، وفي عنف بالغ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً، وهي صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار! [1]

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله (٦/ ٣٧١٢).

هل هناك إعراض أكثر من هذا؟ استخفوا بأنفسهم قبل أن يستخفوا برسولهم، ووصل بهم الجحود والعناد إلى تغطية رؤوسهم بالملابس وآذانهم بالأصابع، حركات يستحي أن يفعلها حتى الأطفال...!!

فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هود ٣٦، وعلم نوح عليه السلام من علاّم الغيوب سبحانه وتعالى أن قومه لا خير يرجى فيهم، وأيقن أنه لن يؤمن إلا من قد

آمن، وإنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً هنالك دعا نوح عليه السلام عليهم حين خشي على القلة المؤمنة من أن يفتنها الكفار، فلا يعبد الله في الأرض أحد، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ نوح ٢٦ - ٢٧.

ليخلص الله المؤمنين من شرهم وآذاهم.

وهذا ما فعله موسى عليه السلام مع فرعون وقومه حين يئس من استجابتهم، فتغيرت لغة الخطاب من الرفق إلى المواجهة: فقال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الإسراء ١٠٢، والظن هنا بمعنى التحقيق، والثبور: الهلاك والخسران.

يقول القرطبي أيضـًا في تفسير سورة هود عند ذكر دعاء موسى على فرعون: (وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم، فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن.. كما جاءت الشريعة أيضـًا بجواز دعاء المظلوم على ظالمه ولو كان الظالم مسلمـًا ولكن شريطة ألا يعتدي في دعائه) [1].

---

(١) تفسير القرطبي رحمه الله.

ومن المفيد أن نضيف هنا ما ذكره الشيخ ناصر بن سليمان العمر من معنى جميل يتعلق بهذا الموضوع، يقول الشيخ حفظه الله: لقد استوقفني قول الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ قال المفسرون: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ ولا تسألني في العفو عن هؤلاء، فهذا الخطاب في ظاهر السياق بعد أن دعا عليه السلام على قومه وذلك بعد أن آيس منهم وذلك قبل أن يصنع الفلك، كما في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾، فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ المؤمنون ﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾.

فذكر دعوته عليهم قبل قوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ وختم ذلك بقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾!

• السؤال الذي قد يرد هنا:

إذا كان العذاب النازل بالقوم جرّاء ذنوبهم قد تسبّب فيه دعاؤه عليه السلام عليهم، فما وجه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ هود ﴿٣٧﴾. أي بطالب العفو عنهم، وهو قد خاطب عليه السلام ربّه عز وجل بإهلاكهم! والذي يظهر في جوابه أن يقال: لله تعالى أقدار يخلقها قد تهول من يطلبها ويلح في الدعاء بها، وإن كان من أعلم الخلق به سبحانه، فالله تعالى أجلّ وأكبر من أن تحيط بأفعاله الأفهام، وخلق الله تعالى عظيم، وتدبيره عجيب، وقدرته لا تبلغ العقول! ومع ذلك فليس أثر علم اليقين كأثر حق اليقين، وفرق بين أن تعلم موت فلان، وبين أن تحضر معالجته السكرات! وكذلك إذا لابس الداعي بالانتصار من ظالم أحوالاً وأهوالاً لم تكن منه على بال.

وتجلّت لعينيه مظاهر من بطش الله تعالى مصدقات قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود ﴿١٠٢﴾، فربما أخذته الرأفة أو اعترته الشفقة، فعاود الخطاب بالتخفيف!

فلعل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

إيذانًا بالعذاب الأليم، ولهذه النكتة نظائر في الأنبياء والأمم، منها ما أخبر الله تعالى عنه كما في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ الأنبياء ﴿٨٩﴾.

وذلك حين شاب رأسه ورق عظمه وكبرت سنه..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مريم ﴿٤﴾-﴿٦﴾، فلما جاءته البشرى بعدها بغلام اسمه «**يحيى**»: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مريم، وفي الآية الأخرى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ آل عمران ﴿٩٢﴾، مع أنه كان قبلها يدعو!

ربما ظن إجابته تقع من جهة غير جهة إصلاح زوجه! لكن الله تعالى على ما يشاء قدير، وفضله يتجاوز طمع أوليائه فيه مع علمهم به!

وقل مثل ذلك فيما وقع لإبراهيم عليه الصلاة والتسليم: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الحجر ﴿٥٤﴾ - ﴿٥٦﴾. وقد ثبت في

الصحيح من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، قحط المطر فادع الله أن يسقينا. فدعا فمطرنا، فما كدنا أن نصل إلى منازلنا فما زلنا نمطر إلى الجمعة المقبلة.

قال فقام ذلك الرجل أو غيره فقال يا رسول الله ادع الله أن يصرفه عنا! فقال رسول الله ﷺ: **(اللهم حوالينا ولا علينا)**. قال: فلقد رأيت السحاب يتقطع يمينًا وشمالاً يمطرون ولا يمطر أهل المدينة [١].

فيا أخا الإسلام! إذا دعوت الله بالخير فأحسن الدعاء ثم أمّل فوق ما تتخيل، فالرّب أكرم، وعطاؤه أجزل، وفضله عظيم، ومننه كثيرة ونعمه تعد ولا تحصى سبحانه وبحمده، وإذا دعوته بغير ذلك فقيد وتحرز وحاذر أن تصادف ساعة إجابة أخذتك فيها لحظة غضب قد تأسف على انتصارك بعد فيها، وتود أن لو قد عفوت أو اقتصدت وسامحت [٢].

ـ انتهى كلام الشيخ ناصر العمر.

---

(١) رواه البخاري رقم (٩٨٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنهما.
(٢) الموقع الإلكتروني للشيخ ناصر بن سليمان العمر.

الخاتمة

إن ما تقدّم لا يعدو أن يكون خواطر واجتهادات عرضتها عليك قارئي الكريم، وهي اجتهادات تحتمل الخطأ والصواب، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، سائلاً المولى عزّ وجل أن يجعل فيها صلاحًا للإسلام والمسلمين، هذا والله أعلم وأصلي وأسلم على رسول الله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المراجع

١ . كتاب التفسير «**معالم التنزيل**» للحسين بن مسعود البغوي.
٢ . كتاب «**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**» للواحدي.
٣. تفسير ابن كثير.
٤ . «**جامع البيان في تفسير القرآن**» للإمام الطبري.
٥ . «**الجامع لأحكام القرآن**» للإمام القرطبي.
٦ . «**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**» لعبدالرحمن السعدي.
٧. «**تفسير التحرير والتنوير**» لمحمد الطاهر بن عاشور.
٨. «**مفتاح دار السعادة**» لإبن القيم.
٩ . «**في ظلال القرآن**» سيد قطب.
١٠ . «**مجموع فتاوى**» الشيخ ابن عثيمين والشيخ عبدالعزيز بن باز رحمهما الله.
١١ . الموسوعة الفقهية.
١٢ . «**اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء**» المملكة العربية السعودية.
١٣ . كتاب: «**جَوَاهِرُ البَــلاغَة في المَعَاني والبَيَان والبَدِيع**».
١٤ . كتاب «**الأساليب القرآنية في عتاب رسول الله**» للدكتور مصطفى مسلم.
١٥ . فوائد من دروس بعض العلماء والمشايخ والمفكرين والكتاب:
١- خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي - **دروسه في الإذاعة**.
٢- د. فاضل السامرائي **الموقع الإلكتروني**.
٣- الشيخ صالح الفوزان **الموقع الإلكتروني**.
٤- الشيخ ناصر بن سليمان العمر **الموقع الإلكتروني**.
٥- الشيخ عبدالعزيز الطريفي **تغريدة على حسابه بتويتر**.

